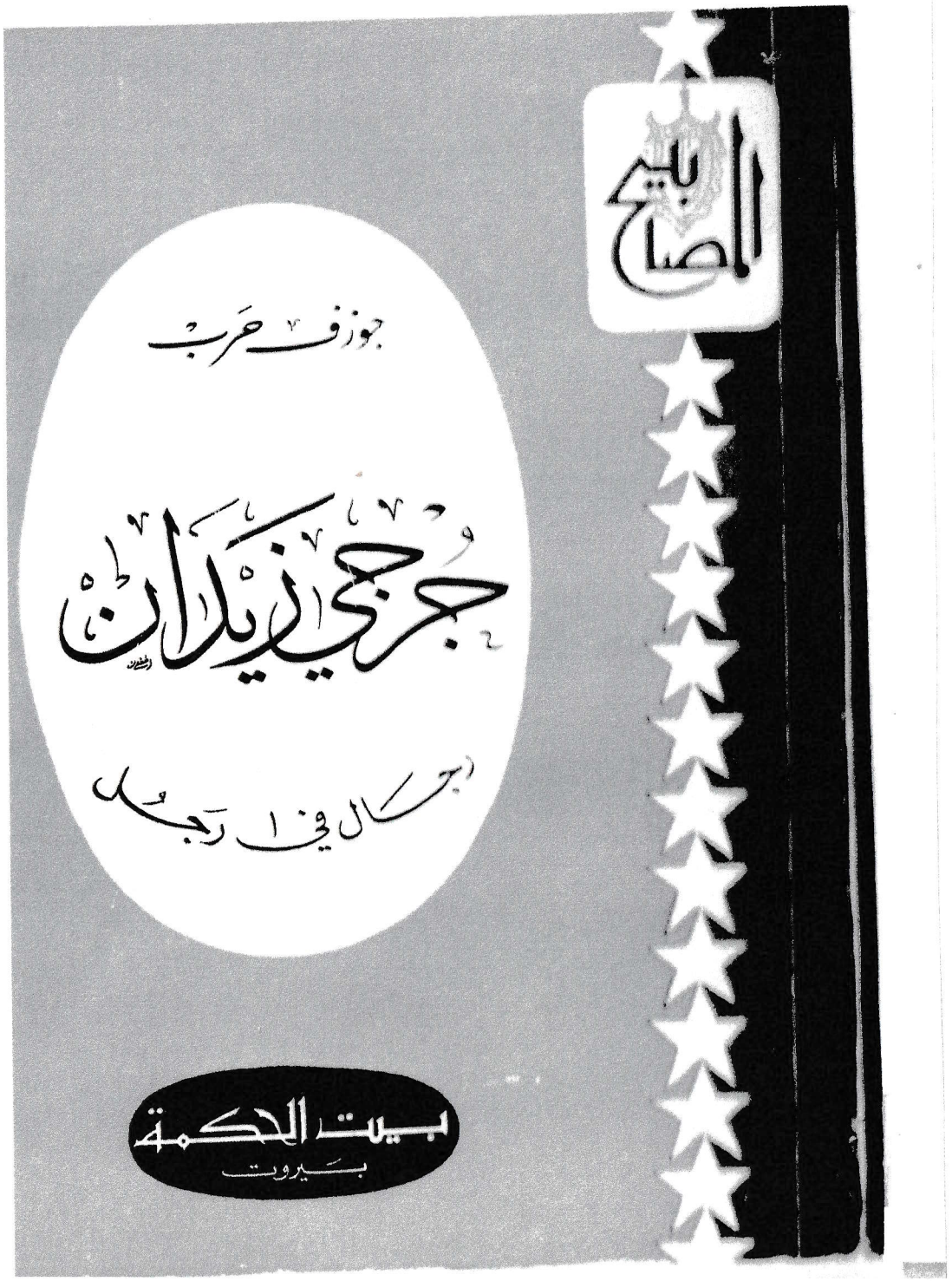
المصباح
جوزف حرب
جرجي زيدان
رجال في رجل
بيت الحكمة
بيروت

جوزف حرب

جرجي زيدان

رجال في رجل

محتوى الكتاب

	الصفحة
صورة « جرجي زيدان » .	٥
صفحة من مذكّرات « جرجي زيدان » .	٦
لوحة الليل والنهار .	٧
أدبه .	١٣–٧٦
١ — أسلوب معلّم الشعوب تاريخَ هذه الشعوب .	١٣
٢ — رائد تاريخ التمدّن .	٣١
٣ — رائد التاريخ الأدبيّ .	٤٠
٤ — مدخل في اللغة .	٦٩
٥ — « الهلال » .	٧٤
نصّ وتحليل .	٧٧
مختارات من نتاجه	٨٨
آراء وشهادات .	١٠٥
المصادر والمراجع .	١٠٧

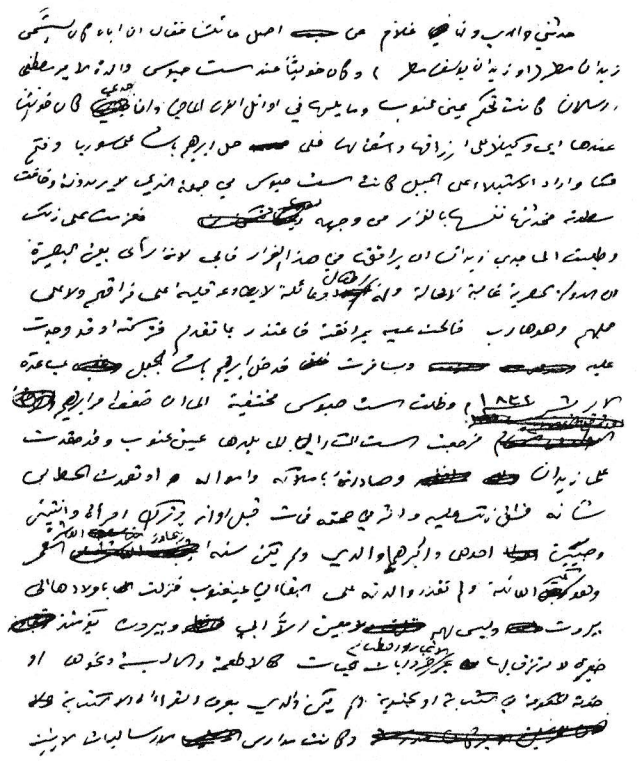

صفحة من مذكّرات « جرجي زيدان »

لوحة الليل والنهار

... ويُغلق باب القبر ، ويتفرّق الفقراء ، مشيّعو النعش ، وقد شاعت في أنفاسهم رائحةُ الموتى ، رائحة أكاليل الزنبق البريّ ، ممتزجة ببخور مبخرة كانت تروح وتجيء في يد كاهن الحيّ ، كرقّاص ساعة الموت .

أليلةَ سينام حذّاء الحيّ أولى لياليه في قبره ، تاركاً وراءه ميراثاً من النعال العتيقة .

أفتكر أنّ « زيدان » ، هكذا ، وبكلّ صمت ، كان سينتهي ، لو بقي العمرَ حذّاءً .

غير أنّ عينَي الصبيّ ، « زيدان » ، ما كانتا لترتاحا إلى قَدَم تغرق في النعل ، أو إلى قدر حمّص تشنج فوق النار . كانتا على كآبة ، وحلمها واحة من ورق أبلحت نخلةُ الكلام فيها ، وسعت إليها ، خريراً طيّبَ اللّحون ، ساقيةُ المحابر .

ومن هاتين المتفتّحتين كبرعمَي عتمة في وجه « زيدان » ، من عينيه ، دخل الليل والنهار إلى نفس الصبيّ ، حتى إذا سعت به حاجةُ أبيه إليه ، في مطعمه الكائن في إحدى زوايا ساحة الشهداء ، صعد

الليلُ من نفسه إلى عينيه ، وراح يريه المطعمَ وكلّ ما فيه ومَن فيه سواداً بسواد ، لا ينشقّ عن ضوء أنيس إلاّ إذا لاح في المطعم وجهُ معلّم ، أو تحرّكت يدا أديب إلى رغيف خبز. أمّا إذا أحسّ «زيدان» بجَناحي فرح يحملانه إلى دواة وكتاب صغير ، في مدرسة قديمة ، فقلْ صعد النهار من نفسه إلى عينيه ، وازرقّت الأشياء ، كأنّها فلك طالما صلّى « زيدان » لشمسه ألاّ تغيب .

وهكذا ، حتى الرسوّ في خليج الموت ، ظلّت كفّتا هذا الميزان ، القائم في صدر الصبيّ ، تعلوان وتهبطان بوزنتَي الليل والنهار في عينيه .

فـ « زيدان » الصبيّ إنْ هو إلاّ من بشر فقير ، عرفت يدا أمّه تطريز الحرير ، وعجن الدقيق ، وادّخار نزرٍ من المال يسير تسدّ به حاجة الصبيّ إلى دفع راتب ، أو مشترى كتاب ؛ كما عرفت يدا أبيه غسلَ الصحون ، وتقشيرَ البصل ، ودفعَ الصبيّ ، قسراً ، إلى مطعم يَفِده الرعاع ممّن كان يذبح عصافير الحروف التي كان « زيدان » يحبسها في أقفاص أحلامه .

و « زيدان » ، الطالب التاعس ، إنْ هو إلاّ مشتهي الحمرة من مذاق زبيبة . فقد قلّ عهداً بالمدارس والكتب ، حتى إذا شبّ ، وألمّ بوفرة من لغة ، واستقام له الفهمُ على شيء من الشعر والنثر ، عوّل النفس على دراسة الطبّ ، فطوى فيه بساط عام كامل من الأيّام ، تغمر عينيه شعلةٌ من نهار نفسه وقتّادةُ الحواشي . غير أنّ الليل يعود فينهض في عينيه هيكلاً أسود الرحاب ، مخنوق الشموع .

و « زيدان » ، الداخل مداخل الرجال ، إنْ أنت عنَتْكَ منه صورةُ اللحم والدم ، فهو قامة مضروبة كفأس ، ربعة ، تتشح في

الوجه سمرةٌ صافية ، وتختلج في المقلتين جمرتي ذكاء ، على أنّ الجفون رفٌّ ينكت الرماد فلا انطفاء ولا تعب . وإنّ أنت عناك منه مصباحُ ما يضيء عتمة الجسد ، عنيتُ الروحَ ، فهو كُبّة من لهب الثقافة والنبل ، وعقل دائم الحضور في عصره ، كان له من التفكير العلميّ المنهجيّ نصيبُ الدارس الموضوعيّ المتعمّق في ظواهر الموضوعات ، ومن الجرأة الفكريّة وقفةُ الباري وراء قوسه ، ومن الثقافة مَعينُ الموسوعيّ الملمّ بأطراف الحياة ، والمتطوّر الواعي أمام سيرها الدائب .

أخذ قضيّة **النشوء والارتقاء والانحلال** مبدأ لحياة فكره ؛ فاعتقد اعتقاد هذا المبدإ في حياة الأمم ، وظواهر الطبيعة . وردّ كلّ نتيجة لسبب موجود ، وكلّ سبب لنتيجة حتميّة . ويكفي إيمانه بأنّ الفكر انعكاس للمادّة في مراحل الحياة ومميّزاتها لجعلك تورد نتاجَه مَوردَ الصحّة في الرأي ، والعمق في التفكير ، والمنهَجيّة العلميّة في العمل ، ممّا جعله قبلة معاصريه أدباءَ عربيّةٍ ، ومستشرقين . فهو بين معاصريه **أستاذ لغات** ما ألمّ بها أحد كما ألمّ ؛ **ورجل أبحاث** ما تقصّاها رجل كما تقصّى ؛ **ورائد فنّ** ما دخل فيه رائد على مثل مادخل. وهو أوّل من نُقلت آثاره إلى لغات الشعوب في عصر النهضة ، لما لاقى نتاجُه من رصد واهتمام عند المستشرقين على الأخصّ . موسوعة جماعة ، قصيّة التفكير ، تمثّلت « بزيدان » كفرد . ولعلّ قدرته كرائد كبير قد انحصرت في عدم فصله العلم والأدب عن الحياة ، إنّما جعلهما جزءاً من أدوارها المتغيّرة ، ملازماً لها ، لا يفارقها ، لأنّه تعبير عن وجهها العلميّ والفنيّ .

وإنّها لوصمة عار على أدبنا العربيّ تركه « زيدان » ، وغيره

الكثير من الروّاد ، دون التصدّي لنتاجهم ، والتولّج في معمّقاتهم وآرائهم . وها قد مضى على وفاة « زيدان » ست وخمسون سنة من غير أن يدخل في خاطر دارس يدرس آثاره ، ويبيّن مدى تأثيره الفاعل في نهضة الآداب العربيّة التي نذر نفسه لها طيلة حياته ، داعياً للنهوض بلغتها، وربط تلك السلسلة من الحضارة العظيمة بحلقات جديدة تؤكّد على حياة العرب ، واستمرارهم كجزء من نموّ الحياة ودأبها نحو عالم أجدّ وأفضل . ولكنْ ، رغم تناسي الدارسين « زيدان » ، وتوجّههم نحو درس من هم أدنى منه قيمة ، « فلزيدان » بقاء ، لا من خلال ما يُكتب عنه ، وإنّما من خلال أدبه بالذات ، لأنّه قطب من أقطاب الأدب ، يدور في فلكه الكثيرُ من الدارسين ، وكاتبي القصص ، والمنشئين ، والمجدّدين الذين قامت على أكتافهم نهضة الأدب الحديث .

و « زيدان » **الأديب** ، إنْ هو إلاّ **رجال في رجل** أخذت وزنةُ الليل نصيبها من جسده ، فغاب في لجّة الزمن ، وبقي فكره نصيب وزنة نهار شذّ عن قاعدة الأيّام في أنّه نهار لن يغيب .

أمّا « زيدان » **الحاضر في الحياة** ، بزمان ومكان معيّنين ، فإن أنت أردت معرفة عصره فهو **عصر انفتحت فيه مجاري الثقافة بين الشرق والغرب، واتّسعت فيه حركة الاستشراق ، ورغب الأدباء عن الأخذ بقوالب التقليد إلى التجديد ، ونشطت حركة الصحافة الأدبيّة ، والتأليف الموسوعيّ والمسرحيّ والقصصيّ** . ومن ثمّ فهو عصر **وعي الشعور القوميّ عند العرب** ، وعصر إقامة كثير من أدباء « لبنان » في « مصر » طلباً للرزق ، يوم ضاق بهم العيشُ عندنا ، وفراراً من وجه الحكم العثمانيّ يوم كانت فأس هذا الحكم تعيش على

قطع غابة من المفكّرين اللبنانيّين بغية احتطابها خوف تفيّؤ الناس أظلالها .

أمّا إن أنت أردت ترجمة « لزيدان » ، فأوجزُ ما يقال فيها أنّه وُلد في « بيروت » سنة ١٨٦١ من أسرة فقيرة ، سعى معيلها إلى الرزق داخل مطعم صغير في إحدى زوايا ساحة الشهداء .

وبضيق ذات اليد تلقّى « زيدان » أغلب علومه على ذاته ، قبل أن يدخل الجامعة الأميركيّة لدراسة الطبّ . ولكن سرعان ما ترك الجامعة إثر حادثة « حريّة الفكر » وعزل أحد المدرّسين الذي حاضر في الطلاّب عن مبدإ الداروينيّة ، فتوجّه إلى « مصر » راغباً عن الطبّ إلى الأدب ليعمل في جريدة « الزمان » ، ومن ثمّ ليذهب مع الحملة المصريّة إلى « السودان » كمترجم للمخابرات فيها .

ويعود إلى « لبنان » سنة ١٨٨٥ ، فينتدبه المجمع العلميّ الشرقيّ عضواً عاملاً فيه . وينتهز فرصة وجوده في « لبنان » فيدرس اللغات الشرقيّة ، ويؤلّف كتاباً في الفلسفة اللغويّة يحظى على أثره بعضويّة « المجمع الأسيويّ الملكيّ » في « إيطاليا » .

ويزور « لندن » عام ١٨٨٦ ، ويتردّد فيها إلى المكتبات والمتاحف يدوّن عن كثير من المخطوطات العربيّة . وفي خريف العام ذاته يعود إلى « مصر » ويتسلّم إدارة مجلّة « المقتطف » ، ثم ينتهي به المطاف سنة ١٨٩٢ إلى إنشاء مجلّة « الهلال » التي ظلّ مؤلّفاً ومنشئاً فيها حتى أدركه الموت في الحادي والعشرين من شهر آب سنة ١٩١٤ ، مخلّفاً وراءه نحواً من خمسين كتاباً بين قصص، وتاريخ ، ودراسات ، ومقالات ، وسِير .

وهكذا انتهى من كان أخوف ما يخاف أن يترك من ليل نفسه ميراثاً من النعال القديمة ، فكان أن ترك ميراثاً من نهار نفسه أسهم في إطلاع نهار الناس في الشرق . ولكن ، برغم ذلك ، فإنّ أحبّ ما أحبّه « زيدان » لوحة لنفسه لا تقتصر على النهار فحسب ، وإنّما على الليل أيضاً ، ليظلّ في الحياة ابناً للحياة .

أدبُه

١ - أسلوبُ مُعلِّمِ الشعُوب تاريخ هَذه الشعُوب

١ - ألعرب والقصّة .

يكفي النظر إلى أخبار القبائل ، وأساطير الجاهليّة ، وإلى السِيَر وقصص القرآن ، وإلى الإبداع في الحبّ العذريّ ، والمقامات ، وألف ليلة وليلة ، وإلى ما قصّه «الاصفهاني» ، و«ابن المقفّع »،و« الجاحظ»، و « ابن شهيد » ، وإلى « رسالة الغفران » « للمعرّي » ، و « حيّ بن يقظان » « لابن طفيل » ، حتى نؤكّد على أنّ **القصّة** عميقة الجذور في تربة الأدب العربيّ. غير أنّ بعض هذه القصص قد غلب عليه عنصرُ الركّة والصنعة ، كما غلب عليه عنصرُ الطرافـة والمبالغات واجتراح الخوارق ، والميلُ إلى السرد والعظة ، والنزوع إلى المتعة ، دون الفائدة التي ترمي إلى نقدٍ وتثقيفٍ اجتماعيّين .

غير أنّ هناك حقيقة من واجب المؤرّخ للقصّة في الأدب العربيّ ألاّ تغيب عن باله، وهذه الحقيقة هي أنّ الشعوب المستضعفة، الرازحة تحت أهواء حكّامها ومشاربهم ، والمشدودة إلى صدورهـــا المنهارة

الظهر سروجُ الطواغيت، والمدمـــاةَ خصورُها من مهاميز الوُلاة والأمراء والسادة ، تعالجُ أمانيَّها نوافـــذُ النفس المطلّة على الحريّة والنور ، وتنهض في خواطرها أحلامُ الحنين إلى الأبطال الشعبيّـــين الذين تردّ رؤى القصص الشعبيّ إلى سواعـــدهم صنعَ الخوارق والأساطير .

ولعلّ أكثر الشعوب تقديساً لأبطالهـا هو الشعب الذي تكون مستويات أبطاله بمستويات أمانيّـــه وأحلامه . وكلّما كثرت سياطُ جلاّدي الشعوب تفنّناً بكتابة صكوك الذلّ على ظهور المستعبَدين، ازدادت أمانيّ المستعبَد من الشعوب عمقـاً . وكلّما عمقت الأمانيّ ألحّت على الشعب حاجتُـه إلى بطل مخلّص يأتي صدفة بطوليّة ، في حتميّة البطولة عند الشعوب . فإن وقع الشعب على بطل طالع في تربة زمن استعباده ناصَرَ نفسه في مناصرته ، وإلاّ أطبق أجفان جراحه يحلم في مجيئه ، وعاد بالزمان القهقرى ينتشي بأخبار البطولات القديمة ، ويستشرف للعماليق من رجال الشعب ، ويرمي على أجسادهم معاطفَ من حبك معادن الأغماد والسيوف والخوذ. وهو إن أنبت في سيوف أعدائه أقلاماً تطنب في كتابة الطعن ، جعل سيف بطله قلماً يهوى الملخّصات. ثم إنّه يختصر السيوف في سيفه، وكرّ المسوّمات من الجياد في جواده. وهو إن قلّت وجـــوه المعارك أكثرَ من صقل المرايا ، وإن قلّت الأعناق أخصبها، وإن تبدّد الغبار حبس عنه الريح وأطلق فيه النقع، حتى إذا أوقع الأعداءُ ببطله ، وترسّم الجرحَ في صدره ، أو القيدَ في قدميه ، أو الجدران تطبق من وطأة السجن عليه ، أصبح ليلُه ليلين : ليلاً ممتدّ الجناح على نفسه ، وليلاً آخر معقودَ الدجى على بطله .

وبعد ، ليس من العجب أن تكون الشعوب العربيّة زمن انحطاطها

— وكأيّ شعب مستضعَف منزوف القوى — دائمة التفكير في بطل مخلّص، يحمل آمالها ، ويُهيب بنخوتها ، حتى إذا ما افتقدته في واقعها المرير ولم تجد له أثراً أطبقت أجفان جراحهـا تحلم في مجيئه ، وعادت بالزمان القهقرى ، تنتشي بأخبار « عنترة » ، و « أبي زيد الهلاليّ » ، و« سيف بن ذي يزن » ، على أنّهم من عماليق الرجال في تاريخها ، على أنّهم من أبطالها الشعبيّين الذين استنجد خيالُها بهم ، يوم عجز واقعها عن خلق أبطاله أو إيجادهم .

وإنّ نشوة العربيّ بأخبار هؤلاء الأبطال ، واستشرافَه لهم ، وغضبَه إن هم سجنوا ، واعتزازَه إن هم نَصَروا ، إن دلّ على شيء ، فإنّما على مدى ما في العربيّ من نخوة مكبوتة ، وعلى مدى مـا كان لهؤلاء الأبطال من تأثير في نفس العربيّ كرهط من معلّمي هذه النفس الرفضَ والحريّةَ والتمرّد .

ولَكَم يدعو إلى الأسف موقفُ البعض من « أبي زيد الهلالي » ، و « عنترة » ، وغيرهما من أبطالنـا الشعبيّين ، عندما يعتبرونهم من مخدّري الإنسان العربيّ ، يوم حطّت به المقاديرُ مستضعفاً بـين لجب الطغاة ، ومشعبذة السياسة ، والمستبدّين !

ولا بأس ، لا بأس ، بركاكة اللغة ، وعجز العناصر الفنيّة ، ورداءة الأسلوب والسياق ، وتزيين الكذب ، طالما أنّ أبطالنا الشعبيّين قـد قدروا ، من خلال إطلالاتهم سِيَراً على عصر الانحطاط ، أن يُبقوا على عزيمة الإنسان العربيّ ، ونخوته ، وتأهّبه لانتفاضته ، يومَ وسعت سروجُ معاركه على ظهور جياده ، فكبا .

وإذا كان لا بدّ من إعادة كتابة هذه السير كتابةً تستأثر باهتمام

القارىء العربيّ بعد صدوفه عنها ، لسبب أوّلٍ هو ما وصل إليه من درجة في الثقافة ، ولثانٍ هو ما على هذه السِيَر من ضعف في العناصر القصصيّة الخالدة ، فلا بدّ فيها من مراعاة إفادةٍ ومتعة جديدتين ، مع الإخلاص لها كمعطى تراثيّ متجدّد . وهكذا ، يظلّ أصحاب هذه السِيَر ذوي فعل اجتماعيّ من خلال وجودهم ، ومن خلال مستوى الفعل الاجتماعيّ الذي ينبع من مستوى كُتّاب هذه السير . ولن يكون مستوى « زيدان » ، **كمؤرّخ بأسلوب روائيّ** ، أقلّ فائدة ومتعة من أيّ كاتب جلّ همّه إيقاظ شعبه على صوت بطولات أجداده . مع العلم أنّ « زيدان » لم يكن كاتب سير أبطالنا الذين أدخلتهم المخيّلة الشعبيّة عالم الخرافات والأساطير ، **إنّما كان مؤرّخاً بشكل روائيّ للتاريخ في واقع الواقع .**

٢ – إنحطاط القصّة ونهضتها .

أمّا القصّة فليس من المستغرَب ، بعد أفول نجم النهضة العبّاسيّة ، أن تصاب ، عهد الانحطاط ، بما أُصيبت به أغلب الفنون الأدبيّة . حتى إذا استقام عود النهضة الحديثة عاد إلى القصّة استمرارُ استقامة عودها ، وَنزَع فيها الأديب العربيّ نزعة القاصّ الاجتماعيّ .

والمؤرّخ للقصّة في النهضة هو المؤرّخ **للقصّة المترجمة المنقولة** ، وللأديب المترجم الناقل ، قبل أن يكون المؤرِّخَ للقصّة العربيّة الحديثة ، والقاصّ العربيّ الحديث . ذلك لأنّ معرفة الأديب العربيّ بروافد الفكر الغربيّ أدّت إلى **نقل** كثير من كتب المسرح والقصّة ، **وترجمتها** ، قبل أن تؤدّي إلى **المحاكاة** ، ومن ثَمّ إلى **الوضع والتأليف** ولعلّ « نجيب الحدّاد » ، و « فرح أنطون » ، و « طانيوس عبده » ،

و « خليل مطران » ، وغيرهم ، هؤلاء النخبة اللبنانيّة التي استوطنت « مصر » بعد « لبنان » ، هم الذين عرّفوا الأدب العربيّ بالقصّة الغربيّة ، وهم الذين نقلوا إلى العربيّة الكثيرَ من قصص « هوجو » ، « وغوته » ، و « كورني » ، و « ولتر سكوت » ، و « شكسبير » ، و « ألكسندر دوماس » ، وغيرهم من أدباء « أوروبا » الذين تأثّر أدب المحاكاة القصصيّة بهم ، قبل أن تنشط عندنا حركةُ التأليف النابعة من واقع المجتمعات العربيّة .

٣ – قصص « زيدان » .

المحاكاة . ولا شكّ في أنّ هذه المؤلّفات القصصيّة الغربيّة قد وجدت من يستحسن القصّ على مناويلها الرائعة ، ومن يحاكي التصاميم العريضة التي اتّبعتها . وليس بعيداً أن يكون « زيدان » هو رائد المحاكاة ، خاصّة في القصّة التاريخيّة ، بعد معرفته بقصص « ألكسندر دوماس » صاحب رواية « الفرسان الثلاثة » ، و « ولتر سكوت » صاحب رواية « صلاح الدين » .

الأصالة بين القصّة والتاريخ . غير أنّ « زيدان » ما كان ليأخذ من المحاكاة مبدأ يظلّ فيه ضمن دائرة التأثّر بمن قرأ لهم ، وما كان ليدخل في رحاب القصّة التاريخيّة وهو جاهل التاريخ ، أو باقٍ عند رتاج بابه العظيم ، من غير أن يتعدّاه إلى عوالمه العجيبة . « فزيدان » ، قبل أن يكون **قاصّاً كبيراً** في عصره ، كان **مؤرّخاً** ألمّ بأكثر جوانب ذلك العالم الذي نهض إلى الوجود على أكتاف شعب راسخ القدم في البناء الحضاريّ . غير أنّ الإلمام بالتاريخ لا يعني الإبداع في القصّة . وقد نجد « زيدان » مؤرّخاً أكثر منه مبدعاً ،

لأسباب أهمّها فقدانه عبقريّة القاصّ الكبير ، وحصرُ نتاجه القصصيّ المناسب بقارىء عصره ، وضعفه غالباً أمام إيجاد الإطار القصصيّ المناسب للوحة التاريخ ، لما يحتاجه ذلك إلى خصب في الخيـــال ، وقدرةٍ على التعمّـــق في النفس البشريّة ، وتيقّظٍ مستمرّ إلى ربط الحوادث بعضها ببعض. ولعلّ تقصيره في هذه الروابط هو الذي أدّى إلى تقصيره في جلاء الحقائق التاريخيّة برزانة المؤرّخ وعبقريّة القاصّ. ولهـــذا خرج « زيدان » في قصصه بقصّة غـير متكاملة الشروط ، وتاريخٍ باهت الملامـــح رغم صحّته كوثائق عند مؤرّخ كبير .

إنّك ، ولا شكّ ، واقـع عند « زيدان » على قصّة ، كما أنّك واقع على تاريخ . غير أنّك لست بواقع على **قصّة تاريخيّة**، إذا أردت أن تقيس نتاج « زيدان » القصصيّ بعناصر القصّة التاريخيّة الناجحة الصحيحة . فغالباً ما كان « زيدان » يقلّل من شأن التاريـــخ ليفسح الطريق أمام ولادة فصل قصصيّ جيّد ، كما كان يخنـق القصّة ليفسح المجال أمام سرد تاريخيّ مجرّد .

وإذا كان هذا الكلام صحيحاً على أكثر قصص « زيدان »، فهذا لا يعني أنّ « زيدان » ما قدر على إطلاع قصّة تاريخيّة ناجحة . فنحن ، إذا تتبّعنا قصصه واحدة بعد أخرى ، وجدنا أنّ هنـاك تطوّراً إلى أفضل، وتفاوتاً ظاهراً بين ما كان عليه وما آل إليه . وكان « زيدان »، كلّما أخرج قصّة إلى حيّز الوجود ، يقترب إلى تلمّس القصّة التاريخيّة الناجحة . ويكفي التمرّس بهذا الفيض من القصص التي أطلعها «زيدان» حتى يكون صاحبها ، في بعض نتاجه ، ناجحاً إلى الحـدّ الذي تسمح به عبقريّة قاصّ ومؤرّخ « كزيدان » .

الطريقة . وقد يُطرح سؤال من الصعب إغضاء المجيب عنه ، فلا

يجيب . هذا السؤال ينحصر في الكلام على الطريقة التي اتّبعها «زيدان» في قصصه . فهـــل اتّبعها بعد معرفته بمستوى القارىء العربيّ ، أم اتّبعها بعد تأثّره بقصص الغرب ، أم اتّبعها من خلال إيحاء زيدانيّ خاصّ ؟

لعلّ الإجابة الصحيحة تكمن في أنّ « زيدان » قد **تأثّر** جدّ التأثّر **بالقصص التاريخيّ الغربيّ** ، ووجد في مستوى قارئه العربيّ ما حبّب إليه اتّباع هذه الطريقة التي لا تخلو من **هدف اجتماعيّ** فاعل نبيل . **فالحبّ** من أقرب الفنون إلى الناس ، وهو من أشيعها في غنائيّة الإنسان العربيّ . والاحتيال على التاريخ ، باعتماد قصّة الحبّ ، يجـد إقبالاً غريباً، خاصّة عند قارىء من العامّة التي ما زالت عيناها حديثتي التفرّس في الكتاب، بعد أن عاشتا أجيالاً على التفرّس في الجهل والجوع والتقهقر والموت . ولم يغب هذا الأمر أبداً عن بال « زيدان » ، **وهو يحاول إيصال تاريخ العرب العريق إلى الانسان العربيّ الناهض حديثاً إلى العلم والمعرفة** . ولعلّ غاية « زيدان » في قصصه هي **غاية تاريخيّة أكثر من كونها قصصيّة** . وإلاّ فلماذا جهد في إيصال التاريخ إلى العامّة على أساس كونه عنصراً من عناصر الوعي، وترسيخ الوطنيّة في الإنسان العربيّ ؟ ولماذا ضيّع زمناً من عمره في التفتيش عن قصص الحبّ ، أو في إعمال الخيال على اختلاقها ؟ أعتقد أنّ « زيدان » ما كان يفكّر في يوم بقضيّة القاصّ الكبير الضارب جناحه إلى أبعد من عصره ، فهو إن فكّر في تعدّي عصره فقد فكّر بذلك على أساسٍ تاريخيّ لا قصصيّ . وإنّنا لنجد هذه الغاية الاجتماعيّة التي هدف إليها في كلام له أورده في مقدّمة الطبعة الأولى لـ « تاريخ التمدّن الإسلاميّ » في جزئه الأوّل ، حيث يقول : « ونظراً لما نعتقده من افتقار قرّاء العربيّة، على اختلاف

مشاربهم ومذاهبهم ، إلى نشر هـــذا التاريخ فيما بينهم – لأنّه تاريخ لسانهم وأمّتهم وبلادهم ، بل هو تاريخ تمدّنهم وآدابهم وعاداتهم – ما فتئنا نختلس الفرص لنشر ما يسهل تناوله، وتدعو الحاجةُ إليه في حينه، ممّا يتعلّق بهذا التاريخ . وأخذنا نهيّىء أذهان القرّاء ، على اختلاف طبقاتهم وتفاوت معارفهم ومداركهم ، لمطالعة هذا التاريخ بما ننشره من الروايات التاريخيّة الإسلاميّة تباعاً في الهلال . لأنّ مطالعة التاريخ الصرف تثقل على جمهور القرّاء ، وخصوصاً في بلادنا ، والعلم ما يزال عندنا في دور الطفولة. **فلا بدّ لنا من الاحتيال في نشر العلم بيننا بما يرغّب الناس في القراءة . والروايات أفضل وسيلة لهذه الغاية** » .

هدف « زيدان » ، إذاً ، هدف تاريخيّ اجتماعيّ ، حاول فيـــه إيصال التاريخ إلى القارىء بحيلة ربّما يكون قد أوجدها غيره واستغلّها هو على أنّها أفضل الوسائل لتحقيـــق ما رمى إليه من نشر تاريخ ، وتوعية شعوب يربطها هدف في نهاية المطاف واحـــد . وعلى هذا يكون من الصعب دراسة « زيدان » كقاصّ ناجـح . وأجدني أتبع السؤال الأوّل بسؤال آخر مفـاده أنّ « زيدان » قد وجـد للقصّة التاريخيّة عنصر القصّة وعنصر التاريخ – وإنْ هدف إلى رسالة تاريخيّة فحسب – فلماذا لم يستغلّ هـــذين العنصرين في سبيل قصّة أفضل وأنجح ؟

ألردّ على هذا السؤال يتطلّب دراسة لمدى ما تمتّع به «زيدان» من عبقريّة القاصّ المفيد الممتع، الذي يخرج قصصه في قالب يضمن لصاحبه استمراراً في العصور على أساس أنّ ما كتبه فنّ له قدرة الاستمرار والتخطّي . وقد نجد « لزيدان » أعذاراً كثيرة ، كأن نقول مثلاً : إنّ « زيدان » أديب موسوعيّ ، لم تسمح له ظروف انشغاله بأكـــثر

فروع الفكر في التفرّغ للعمـــل القصصيّ تفرّغاً كاملاً . غير أنّ هذا العذر ، كغيره من الأعذار ، لا يخلّص « زيدان » من الجور الطبيعيّ الذي يتمتّع به التاريخ الإنسانيّ الذي يصبح ناقـداً لآثار من كانوا له خطوات ظاهرة النقش على صخر الزمن .

ألتأثّر بالقصص الغربيّ . أمّا إذا صحّ القول إنّ « زيدان » قد تأثّر بالقَصص الأوروبيّ الذي استقى لنضج ثماره من نبعة التاريخ ، فلأيّ حدّ بلغ هذا التأثّر في قصص « زيدان » ؟ هل كان « زيدان » ظلاًّ لأسلوب غيره وغاياته ؟ أم إنّه اكتفى بالإسلوب ، وهدف إلى غاية من عنده ؟ أم إنّه تعدّى عنصر الأسلوب والغاية عند غيره إلى أسلوب وغاية انفرد بخلقهما معاً ؟ أسئلة لعلّ جوابها يكمن في إلقاء نظرة عابرة على الذين تأثّر بهم «زيدان» ، وخاصّة الروائيّ والشاعر الاسكتلنديّ « ولتر سكوت » .

أوّل رأي يتبادر إلى ذهنك بعد قراءة «سكوت » هو أنّ هـــذا الروائيّ العظيم قـد **فصل بين علم التاريخ والقصّة التاريخيّة** ، وأنّ الحدّ الفاصل بينهما هو **الفنّ** ، الفنّ الذي لا يلتزم في القصّة التاريخيّة الحقيقةَ التاريخيّة ، ولهذا نجد « سكوت » يتصرّف في حقائق التاريخ بما يتّفق ومطلبه الخياليّ المبتكر . غـــير أنّ فصله بين علم التاريخ والقصّة التاريخيّـة لم يأتِ عن عجز منه في تفهّمه الصحيح للحقائـق التاريخيّة ؛ فقد تعمّق «سكوت» كثيراً في تاريخ القرون الوسطى ، وتاريخ الكنيسة الرومانيّة ، وذلك ليكون عميقـــاً في خلق أبطاله الذين لا نقدر أن ننزع عنهم هويّةَ القرون الوسطى . غير أنّ هؤلاء الأبطال هم ملك « سكوت » أكثر من كونهم ملك التاريخ ، وملك خياله أكثر من كونهم ملك الحقيقة .

فـ « سكوت » ، إذاً ، لم يزوّر في التاريخ ، لأنّه لم يكن دارساً للحقيقة التاريخيّة . والذي يدرس حياة هذا الروائيّ يرى أنّه بدأ شاعراً استغوته الأغاني الشعبيّة والأساطير الشعريّة ، ونظم فيها أروع الشعر . غير أنّه تحوّل رغماً عنه إلى روائيّ ، وظلّ مدّة لا يصرّح باسمه على غلاف رواياته ، على اعتبار أنّ الرواية أقلّ شأناً من الشعر . ولعلّ بروز نجم الشاعر « اللورد بيرون » كان من أهمّ الأسباب التي أدّت الى رغبة « سكوت » عن الشعر ، بعد أن وجد في المعجبين به ميلاً عنه إلى أناشيد « بيرون » الشعبيّة .

غير أنّ هذا التحوّل لم يُنسِ «سكوت» أنّه شاعر ، كما لم يبعده عن مسح قصصه بمسحة شعريّة تأثّرت كثيراً بالفضيلة والجمال وأخلاق فروسيّة القرون الوسطى . هذا فضلاً عن أنّ « سكوت » لم يهدف إلى نقل حقائق تاريخ القرون الوسطى إلى شعبه ، إنّما انتقل من الأساطير والأناشيد الشعبيّة الشعريّة ، إلى الأساطير والأناشيد والقصص النثريّة ؛ إذ إنّ قارىء « سكوت » كروائيّ يرى أنّه قد ملأ كثيراً من صفحات رواياته بالمناجاة المستفاضة ، وتقديس الأبطال الخياليّين .

أمّا « زيدان » فلم يهدف إلى الفنّ الذي يفصل بين القصّة التاريخيّة والحقيقة التاريخيّة ، **إنّما هدف إلى الحقيقة التاريخيّة في إطار رواية** يشوبها كثير من الدراسة والبحث والتسلسل التاريخيّ . وإذا كان « سكوت » قد استعان بالخيال ليقوّي عنصر الفنّ ، فإنّ «زيدان» قد استعان بالخيال ليسدّ الثغرات التي توجد في القصّة التي تعتمد الحقيقة التاريخيّة . وإذا أردنا أن نجعل من « زيدان » متأثّراً « بسكوت » أو تلميذاً له فهو تلميذ مخفق . أمّا إذا أردنا أن نجعل منه قاصّاً في سبيل هدف تاريخيّ ، فإنّ ثمّة بعداً شاسعاً بين «سكوت» و«زيدان» .

فإذا اتّفق لهما أن يجتمعا ، إلى حدّ ، في الوسيلة التي برع فيها «سكوت» ، وقصّر فيها « زيدان » ، فهما لم يجتمعا في الغاية التي كانت عند «زيدان» توعية اجتماعيّة ، بينما كانت عند « سكوت » حنيناً إلى الماضي .

أمّا « ألكسندر دوماس » — وهو ممّن تأثّر «زيدان» بهم أيضاً — فلم يهدف إلى قصّة تاريخيّة أكثر ممّا هدف إلى قصّة عشق وجدها خبيئة في التاريخ ، فكتبها في إطارها التاريخيّ ، على أنّها تعنى بالحبّ قبل أيّ شيء . وبهذا يكون العكس عند « زيدان » صحيحاً ، إذ إنّه هدف إلى قصّة تاريخيّة وجد في الحبّ أفضل العناصر المشوّقة لإقبال القارىء عليها ، فاستغلّ قصص الحبّ الخبيئة في التاريخ لهذه الغاية . ولكنّ هذا لا يعني أنّنا ننفي عن « دوماس » مادّة التاريخ كعنصر أساسيّ في قصصه ، خاصّة وأنّه كشف لنا عن كثير من وجوه الساسة ورجال الدين ، ودرسها في بعض الأحيان هي والمجتمعات التي عاشت فيها كمؤرّخ ؛ إنّما يجب النظر في مدى صحّة وقائع التاريخ لديه . إلاّ أنّه لم يهدف في نهاية المطاف إلى الهدف الاجتماعيّ الذي بنى « زيدان » في سبيله هذا البناء القصصيّ الضخم . ولعلّ الوجه الفاصل بينهما هو أنّ « زيدان » أراد إيصال التاريخ العربيّ إلى الشعوب العربيّة ليكون في الشعب أداة دفع إلى أمام ، بينما نجد « دوماس » بعيداً كلّ البعد عن هذه الغاية . وإذا كانت غاية « زيدان » قد تعدّت بقيمتها الاجتماعيّة غايةَ « دوماس » ، فإنّ « دوماس » قد أصاب من النجاح في بنائه القصصيّ ما لم يصبه « زيدان » ، أو ما لم يقدر على إصابته رغم كثرة ما كتب .

وعلى هذا الأساس يكون « زيدان » قد فاق « دوماس » في الغاية على أنّها غاية اجتماعيّة مثلى ، بينما نراه قد ظلّ دون « دوماس » في

الأسلوب على أنّه الحركة البنائيّة الأولى في عالم القصّة .

عاش « دوماس » في زمن كانت البورجوازيّة الفرنسيّة فيه قد استراحت من عبء مناهضتها الإقطاع والنبلاء ، واستسلمت لرغباتها كطبقة وصلت لما هدفت إليه ، وراحت تمثّل بشكل جديد ومضمون جديد عمليّةَ استثمارها بقيّة الطبقات . ولم يكن عمل « دوماس » ، كأديب قاصّ ، إلاّ عودةً إلى زمن الإقطاع والنبلاء والفرسان ، يقتنص منه أحداثاً تاريخيّة يكتبها بقالب ترضى عنه الطبقةُ الجديدة ، من غير ما إخلاص لحقيقة تلك الأحداث . فكان أن جاءت قصصه قصصاً غلب على وقائع التاريخ فيها عنصرُ التزييف والتحايل ، كما غلب على غاياتها هدفُ المتعة دون الفائدة .

أمّا « زيدان » فلم يرتبط بأهداف طبقة حاكمة ، ولم يغلب على طابع قصصه غايةُ إرضاء سادة عصره ؛ ولذا لم تأتِ قصصه وكلُّ أمرها حدائق تسلية ومتعة ، وصفحات تزييف وتحايل . وإذا كان « دوماس » قد حاول إرضاء سادة زمنه ، من غير ما اعتبار لصحّة التاريخ ، فإنّ « زيدان » قد حاول إرضاء إنسان زمنه في تطلّعه إلى معرفة ماضيه ، وأيّام أمّته ، كحافز له إلى التطلّع نحو حاضر ومستقبل يكونان استمراراً مشرقاً لماضي تاريخه المشرق .

يقول « نقولا الحدّاد » في كلمة له على « زيدان » الروائيّ : « زيدان ، كروائيّ ، رافايل التاريخ . رافايل رسم المكان ، وزيدان صوّر الزمان . صوّر زيدان أربعة عشر قرناً مرّت على الشرق مفعَمة بتقلّبات المدنيّات الشرقيّة ، وحوادث الأقوام العربيّة . فلا تقف عند صورة إلاّ تستلذّ الوقوف عندها مراراً ، وكلّما وقفت مرّة رأيت فيها جمالاً جديداً » .

أربعة عشر قرناً صوّرها « زيدان » في نتاجه الروائيّ . ولعلّ هذا المدّ الزمنيّ لم يجد لنفسه ريشةً تنقل ملامحه في إطار تاريخيّ كالريشة التي وجدها عند « زيدان » . ولعلّ هذا المدّ الزمنيّ أيضاً هو الذي قصد إليه « زيدان » تاريخيّاً لا قصصيّاً . وهذا ما يؤكّد على أنّ «زيدان » قد أراد من نتاجه هذا ، إمّا تمهيداً لإيصال « تاريخ التمدّن الإسلاميّ » إلى القارىء ، وإمّا تكميلاً لغاية قام إليها ، مفادُها الإلمام بحياة امتدّت إلى أكثر من أربعة عشر قرناً إلماماً شاملاً لا يترك فيه زيادةً لمستزيد .

تراثه القصصيّ وموضوعاته . كتب « زيدان » اثنتين وعشرين قصّة ، يخرج عن نطاقها أربعُ قصص لا تدخل في نطاق السلسلة التي أرادها تاريخاً تسلسليّاً للعصور الإسلاميّة العربيّة يبتدىء **بظهور الاسلام ، وينتهي بالانقلاب العثمانيّ** . وتحتوي هذه السلسلة على نشر الدعوة الإسلاميّة ، وفتح « مصر » على يد « عمرو بن العاص»، ومقتل « عثمان بن عفّان »، وخلافة « الإمام علي » مع ما رافقها من أحداث، ونهوض الخلافة الأمويّة، وولاية « يزيد بن معاوية » ووقعة « كربلاء » ومقتل « الإمام الحسين » ، وحصار « مكّة » على يد « الحجّاج بن يوسف » ، وفتح « إسبانيا » على يد « طارق بن زياد » ، وفتوحات العرب في « أوروبا » وأسباب إخفاقهم فيها ، ومن ثم سقوط الدولة الأمويّة وقيام الدولة العباسيّة ، ونكبة البرامكة على يد « هارون الرشيد » ، والخلاف الذي قام بين ولدَي « الرشيد » ، « الأمين » و«المأمون» ، وما تبعه من دخائل السياسة بين الفرس والعرب ، ووصف الدولة العباسيّة زمن « المعتصم بالله » ومحاولة الفرس لبناء دولتهم من جديد ، ومحاولة الروم لاكتساح المملكة الإسلاميّة ، وبلاد « مصر »

في زمن « أحمد بن طولون » ، وبلاد « الأندلس » في زمن الخليفة « عبد الرحمن الناصر » ، وظهور دولة الفاطميّين في « أفريقيا » وانتزاع « مصر » من « الإخشيديّين » ، وانتقال « مصر » من يد الفاطميّين إلى « الأيّوبيّين » على يد « صلاح الدين » ، وحالة الخلافة العباسيّة زمن « ركن الدين بيبرس » ، وانتقالها من « بغداد » إلى « مصر » ، وأخيراً الانقلاب العثمانيّ الذي قام به أحرار العثمانيّين في سبيل طلب الدستور .

أمّا القصص الأربع الباقية فثلاث منها تدخل في نطاق القصّة التاريخيّة ، وهي « أسير المتمهدي » التي وصف فيها « زيدان » أحوال « مصر » و « السودان » في الربع الأخير من القرن الماضي ، وتدخّل الدول الأجنبيّة الذي أدّى إلى ثورة « عرابي » في « مصر » و « المهدي » في « السودان » ، واحتلال الإنكليز « مصر » ؛ وقصّة « الملوك الشارد » ، وتتضمّن حوادث « سوريا » و « مصر » في زمن الأمير « بشير الشهابيّ » « ومحمّد علي باشا » ؛ وقصّة « استبداد المماليك » وتتضمّن أحوال « سوريا » و « مصر » في أواخر القرن الماضي ، والحرب التي قامت بين « تركيا » و « روسيا » .

أمّا القصّة الرابعة فهي قصّة حبّ تدور على ما يقاسيه المحبّون في سبيل ما يريدون ، وعنوانها « جهاد المحبّين » .

فنّه وأسلوبه . والناظر في هذه السلسلة التاريخيّة القصصيّة يسترعي انتباهَه حرصُ « زيدان » على ذكر **المصادر** التي استقى منها معلوماته وحوادث أبطاله . وإن دلّ هذا على شيء فإنّما يدلّ على مدى الأمانة التي خصّ « زيدان » نفسه بها في سبيل الردّ على متّهميه بالتزوير التاريخيّ . وإنّما يدلّ أيضاً على ذلك الفيض من الكتب التي قرأها « زيدان » في سبيل إيجاد المادّة القصصيّة التاريخيّة الضخمة .

كما انّ الناظر في هذه السلسلة يسترعي انتباهَه ذلك الضعفُ في البناء القصصيّ ، وفي النهج الخياليّ ، وقد كان « زيدان » يبتعد عن هذا الضعف كلّما امتدّ به نتاجه القصصيّ . فالذي يقرأه في بدايات قصصه ، ومن ثم يقرأه في أخرياتها ، يجد أنّ **صاحبها قصصيّ متطوّر** ، إن من جهة الأسلوب ، وإن من جهة إنزال التاريخ في الإطار القصصيّ الصحيح المشوّق .

وكون « زيدان » قد قصد إلى التاريخ كحقيقة يظهر في وعي الحوادث السياسيّة والاجتماعيّة في أسبابها ونتائجها . فهو في « العبّاسة أخت الرشيد » مثلاً لم يغب عنه الأمرُ السياسيّ الاجتماعيّ الذي أدّى إلى نكبة « البرامكة » على يد « هارون الرشيد » ؛ وهو في « ١٧ رمضان » لم يغب عنه الأمر السياسيّ والدينيّ الذي أدّى إلى مقتل « علي بن أبي طالب » . وليس هذا صعباً على « زيدان » الذي عمل طيلة حياته ، بعقله النيّر وأسلوبه الموضوعيّ ، على إحياء العصور العربية الإسلاميّة ودراستها تاريخيّاً وأدبيّاً . إلاّ أنّ « زيدان » كان يضطرّ ، في أحيان كثيرة ، إلى خلق شخصيّات وابتداع حوادث تعتبر ملك خياله لا ملك التاريخ . وذلك ، كما أسلفنا ، لكي يسدّ تلك الثغرات التي تفصل بين الحوادث والشخصيّات .

و « زيدان » لا يتعدّى غالباً عصره كقاصّ ، ذلك لأنّه كتب لقارىء عصره ، أو لأنّه لم يقدر أن يكتب إلاّ لهذا القارىء . وإذا أردنا أدلّة على ذلك ، أو أدلّة على أنّ « زيدان » مؤرّخ أكثر من كونه قصصيّاً ، فهناك كثير من الأدلّة التي تؤكّد صحّة هذا الرأي ، كأن نجد « زيدان » قد اعتمد غالباً على مفاجأة قارئه بعمليّة أستذة وتلمذة : لكأنّه في بعض الفصول يقيم نفسه أستاذاً في حوادث التاريخ ، فيشرح ،

وبشكل مبسّط وبسيط ، حادثة حربيّة ، أو أصلاً دينيّاً ، أو نسباً قبليّاً ، أو مذهباً اجتماعيّاً أو سياسيّاً أو دينيّاً ، إلى ما هنالك من حوادث تاريخيّة ، يفصلها تمام الفصل عن القصّة في سياقها ، ومن ثم يعود ليربطها بحيث انتهى بالسرد القصصيّ الذي خيّم عليه في أولى رواياته ما يذكّرك بسيرة « عنتر » ، أو بتلك الخوارق التي يقوم بها أبطال القصص على لسان راوية عبّاسي .

و« لزيدان » **أخطاء** كثيرة في تتبّع الحوادث زمنيّاً . كما انّ له تعابير كثيرة لا تتوافق والمعطى المادّي للزمن الذي يتحدّث عنه ، كأنْ يعبّر عن الرعشة بمسّ كهربائيّ في زمن كان العرب فيه على المسرجة ، والمصباح ، وضوء النار .

ولعلّ أخطأ ما وقع فيه « زيدان » تلك الطريقة في التعبير عن العواطف ، وفي الحوار بين الشخصيّات ، وفي **ردود الفعل في تلقّي النبإ** ، كأن يصيب إحدى شخصيّاته بالإغماء أكثر من عشر مرّات في سياق قصّة واحدة ! حتى اعتراني الخوف على بطلة « فتاة غسان » من الوقوع عن الشرفة مغمى عليها ، أو قتيلة ، بعد رؤيتها حبيبها الذي امتدّ به الغيابُ عنها كثيراً ، وذلك بعد إغماءات ، وضيق نفس ، وهزال ، طيلة السياق القصصيّ . كما انّ طريقة النجوى عند «زيدان » طريقة مضحكة ، لا لزوم لوجودها . ولعلّ هذه النجوى قد تأثّر بها من قراءته لقصص « ولتر سكوت » الذي غلب عليه عنصرُ الشعر في أكثر ما كتب .

وإذا أردنا أن نعدّد الأخطاء التي وقع « زيدان» فيها ، إن في الحوار ، أو الشخصيّات ، أو السرد ، أو التعابير التي لا توافق العصر الذي دارت فيه حوادث القصّة ، فهي أخطاء كثيرة . غير أنّ هذه

الأخطاء لا تشكّل عقبة كأداء في صنيعه القصصيّ . فإذا خطا « زيدان » بإحدى شخصيّاته في ناحية من نواحي « الكوفة »، مثلاً ، أسمعك فقش الحصى ، وأراك القدم تغرق في الرمل ؛ وإذا أدخل إحدى شخصيّاته مضرباً أو بيتاً رسم لك تلك المضارب أو البيوت على نحو ما كانت عليه ، أو على نحو ما وجدها مرسومة في كتب المؤرّخين. وهو إلى ذلك بدويّ التعبير أحياناً مع البدويّ ، وحضريّ التعبير مع الحضريّ ، وصاحب عادة وتقليد حجازيّين مع الحجازيّ ، وشآميّ العادة روميّها مع الشآميّ . وإلى ما هنالك من ملامح اجتماعيّة كان « زيدان » **فيها قاصّاً مصوّراً وتاريخيّاً صادقاً** ، أدقّ تصوير وأدقّ صدق . يضاف إلى هذا أنّ « زيدان » **لم يفقد مرّة عنصر التشويق** ، وإنْ فقد عنصر الحبكة القصصيّة الجيّدة ؛ فهو دائماً ضنين القلم بالكشف عن حقيقة أبطاله دفعة واحدة ، كما انّه ملثّم الوجوه بلثام المفاجأة ، والحيرة ، والذكاء .

أمّا **أسلوبه** فهو **أقرب إلى السهولة والترسّل** منه إلى التعقيد والصنعة . وقد خيّم هذا الأسلوب ، لا على قصصه فحسب ، وإنّما على كلّ ما كتب ، إيماناً منه أنّ للقارىء في عصره حقّاً عليه ، وأنّ للأدب وجهه الاجتماعيّ وصنعته اللغويّة المبسّطة الصحيحة .

ولعلّ أصدق قول في أسلوب « زيدان» ما جاء عند «مارون عبود» في كتابه «أدب العرب» عن منشىء «الهلال»، حيث يقول: « لم يكن يعتمد في كتابته أسلوباً خاصّاً، بل كان يرسل عبارته على السليقة بلا تكلّف ولا تصنّع ، فإذا صحّ أن يكون لبطرس البستاني أسلوب فهو هذا ، فكلاهما طُبعا على غرار واحد ، ورميا إلى هدف واحد هو تعليم الجمهور » .

أمّا الذي يتّهم « زيدان » بأنّه صاحب أسلوب هو أقرب شيء إلى الصحافة ، فليدرس مستوى القارىء في زمن « زيدان »، وليبحث عن مدى الحاجة الملحّة التي فرضت على ذلك القارىء وأولئك الأدباء في أن يجتمعوا على غاية واحدة، ألا وهي تعليم الجمهور الذي يفرض على الأديب أن يكون معلّماً « كزيـــدان » ، خاصّة في بداية عصر بدأ يتكشّف له فيه الطريق المشرق بعد عصور في الظلام والظلم .

وبهذا تكون قصص « زيدان » مدرسة للجمهور العربيّ الذي نهد إلى العلم والمعرفة ، ويكون هذا الجمهور تلميذ « زيدان » الذي وجـد طلّابه في الحياة لا على مقاعـــد الدراسة فحسب وإذا كانت قصص « زيدان » لا تتعدّى عصرها من خلال عناصرها الفنيّة ، فإنّها تعدّت عصرها من خلال الغاية التي هدفت إليها في تعليم الجمهـور وتثقيفه ، في سبيل البدء ببناء مجتمع يُقبل الإنسان العربيّ عليه بمستوى الإقبال الذي حدا «زيدان» على بناء هذا القصص التاريخيّ الهادف الفاعل.

٢ - رائِدُ تاريخ التَمَدّن

١ – أهميّة البحث وفضل « زيدان » فيه .

ألكلام على **التمدّن** غير الكلام على **الحضارة** ، رغم ما بينهما من صلة . فالحضارة ، إن شملت التمدّن ، فإنّ التمدّن لا يشمل الحضارة . فتسمية تاريخ الإنسان العربيّ ، الذي كان قد اعتنق الإسلام، بالتمدّن، تسمية صحيحة . أمّا البحث في تاريخ التمدّن فإنّما هو البحث في مـا بلغه هذا الكائن الاجتماعيّ من تطوّر . ومن المسلّم بـــه أن يكون « زيدان » قد عرف معنى التمدّن على هـذا الوجه ، حتى جاء كتابه « تاريخ التمدّن الإسلاميّ » جامعاً لأهمّ الظواهر التي أسهمت في بنـاء هذا التمدّن عند شعب كان واسطة العقد بين تمدّن العالم القديم ، وهذا العالمِ الحديث الذي بدأت يدا إنسانه تلتمسان الحيـــاة على أرض كوكب آخر .

هذا الشعب هو الشعب العربيّ الذي أخرج « زيدان » تمـدّنه إلى العالم ، في زمن كانت كتابة التاريخ فيه تنتقل من كونها لوناً من الفنّ والفلسفة ، إلى كونها علماً تعدّدت فيه التفاسير والمذاهب .

والحقّ في أنّ تفرّد «زيدان» بهذا العلم إنّما هو نتيجة ما تمتّع به الرجل، دون غيره، من إلمام شامل بأشهر اللغات وأعظمها، ممّا جعله يستنير بأغلب ما كتبه مؤرّخو الغرب ومستشرقوه عن الشرق والغرب؛ ونتيجة إقباله على تلك الأضاخيم والأمّات من كتب التراث، في سبيل أن يجد المادّة التي تُطلع كتابه إلى الناس عملاً سويّاً، حتى ليصحّ القول: إنّ هذا الكتاب العظيم ما كان ليجد السبيل إلى النور إلاّ على يد كاتب عربيّ عظيم.

غير أنّ هذين العنصرين: **الالمام باللغات، والقراءة الأكول**، ما كانا ليصنعا من «زيدان» كاتبَ تاريخ رائداً، لو لم يقترنا بعنصر أجده شبه مفقود عند مؤرّخي العرب قبل النهضة الحديثة، ألا وهو عنصر **النقد والتحليل الموضوعيّ** الذي يربط كلّ حادثة بسبب لها ونتيجة، بحيث يصبح التاريخ على وفرة من التعقّل، وبعدٍ عن هوى في النفس، فلا يرمي بالمؤرّخ مرمى المقصّر الجاهل، أو المزوّر المغرض.

والتزوير كالصدق، من ناحية حاجة كلّ منهما إلى تتبّع الوقائع في مظانّ ما تسبّبت عنه وانتهت إليه. ومن هنا يكون التزوير بحاجة إلى معرفة ما هو صحيح في الواقع، لتأكيد ما هو صحيح في غاية المزوّر. فإذا صحّ هذا القول في بعض مؤرّخي الغرب ومستشرقيه، فإنّ الخطأ لا التزوير هو غالباً ما يصحّ قولاً في المؤرّخين العرب، ذلك لأنّهم جهلوا إلى حدّ بعيد علم التاريخ والتمدّن، فجاؤوا بوقائع تعتمد غالباً السرد دون النقد.

ولا مجال للقول، من بعيد أو قريب، إنّ «زيدان» قد زوّر في ما كتب. ولعلّ مبدأ صدقه في كتابة التاريخ آتٍ من مبدأ إيمانه بأنّ

المعرفة الصحيحة لبناء الواقع الماضي، هي جزء من المعرفة الصحيحة لبناء الواقع الآتي. ولعلّ هذا المبدأ أيضاً قد جعل من «زيدان» آخذاً بعلم **التخيُّل** الذي يتشوّف المستقبل من خلال نظرة صحيحة إلى النظم الاجتماعيّة، وإلى ما كان عليه الإنسان في سبيل ما يجب أن يصير إليه. وإذا كان الصدق عند «زيدان» معصوماً من التزوير، فهو ليس بمعصوم من النقص والخطإ اللذين قد يكونان ناجمين عن أنّ البحوث الصحيحة التي جاءت بعده استندت إلى اكتشافات ومعطيات لم تكن في زمانه بعدُ قد ظهرت.

٢ – أبرز الأقسام والموضوعات.

والناظر في «تاريخ التمدّن الإسلاميّ» يراه منقسماً وفق **مرافق الحياة الاجتماعيّة**، لا وفق **العصور**. فسياسة الدولة العربيّة الإسلاميّة، مثلاً، أفرد «زيدان» لها جزءاً خاصّاً، وأخذ بها تباعاً، من عصر إلى عصر، دارساً طبيعة تكوينها، ومظاهر نموّها وانحطاطها، وواعياً خصائصها الاجتماعيّة، وميزات شخصيّاتها، وطرق تبدّلها، من خلال تفاعلها وسياسة الدول المتاخمة للعالم العربيّ طيلة امتداد ذاك التمدّن الطويل. وهكذا نرى «زيدان» قد أخذ بالظاهرة الاجتماعيّة الواحدة، عصراً بعد عصر، مع تتبّع يكثر حيناً ويقلّ حيناً آخر، لما تفاعلت به من وقائع وأحداث لا سبيل إلى التغافل عنها واقعيّاً. وهو بذلك يكون قد ترك الطريقة التي اتّبعها في كتابه «تاريخ آداب اللغة العربيّة»، والتي درس فيها الفنون الأدبيّة، شعراً ونثراً، حسب ظواهرها في كلّ عصر. وإذا كان قد درس في كتابه «التمدّن» كلّ ظاهرة تمدنيّة على حدة، فأحوجنا بذلك إلى تصفُّح أجزاء كتابه

الخمسة لكي نلمّ بظواهر التمدّن مجتمعةً ، في كلّ عصر ، فذلك لا يسقط من قيمة الكتاب ، ما دام درسُ كلّ ظاهرة من تلك الظواهر قد توافرت فيه عناصرُ التأليف التاريخيّ الصحيح .

الجزء الأوّل . وكلام «زيدان» على التمدّن في الجزء الأوّل من كتابه ، ينحصر في **نشوء الدولة العربيّة الاسلاميّة** ، مُمَهِّداً لها بدراسة موجزة لا بدّ منها عن عرب الجاهليّة ، وكونهم شعباً كان على استعداد لتقبّل هذا النشوء ، والعيش تحت لواء سياسته الجديدة . ومن ثمّ ينتقل إلى البحث في كيفيّة نشوء **الدعوة الاسلاميّة** ، وإلى الأسباب التي حدت العرب على تقبّلها ، والكفاح في سبيل ذهاب جذورها في التربة العربيّة .

ولعلّ أهمّ ما في هذه الدراسة ، عن النشوء العربيّ الإسلاميّ ، كشف « زيدان » عن حالة **الطبقة الحاكمة** في « قريش » ، ودرسُه الأسباب التي أدّت بالطبقات المحكومة إلى الأخذ بالدعوة الجديدة ، مع إلمامه بأسباب ذاك التقهقر الذي كان قد أصاب الفرس والروم ، إثر الصراع القائم بينهما من جهة ، والصراع القائم داخل كلّ منهما من جهة ثانية .

إعتبر « زيدان » أنّ اهتراء الأنظمة التي سادت العرب في الجاهليّة وقبضت على مرافق الاقتصاد ، والتي كانت شبه محصورة في طبقة من « قريش » وبعضٍ من بقيّة القبائل ، هو الذي حدا العرب على تقبّل الدعوة الجديدة ، إيماناً منهم بإشراق فجر جديد يحقّقون فيه شيئاً من العدالة والتحرّر ، ما كانوا ليحقّقوه في ظلّ نظام بلغ صراعُ المتناقضات فيه حدّ الانفجار .

وعلى هذا الأساس كان لا بدّ للعرب من الأخذ بالدعوة الجديدة .

أمّا الروم والفرس ، فإنّ الضعف الداخليّ الذي بلغته كلّ منهما ، والحروب التي كانت متوارثة بينهما ، هو ما دفع العرب الآخذين بالجديد القويّ إلى فتح دولتين كان قد أخذ الانهيار منهما كلّ مأخذ . وعلى هذا الأساس كان لا بدّ للعرب من الفتوح والنصر .

وإنّ حتميّة واقع كهذا تفرض على الناهضين به ، وقد أصابوا سَعة من الملك عظيمة ، إثر ثبوت الدعوة الإسلاميّة وقيام الفتوح ، أن يكونوا على **نُظُمٍ تتوافق وواقع الحال** الذي هم عليه . وإنّنا لنجد العرب في نشوء دولتهم ، ونموّها وتطوّرها ، وانتقالها من يد إلى يد ، قد أتوا بنظم إداريّة وسياسيّة وماليّة وعسكريّة وقضائيّة كانت نتيجة الحاجة الماسّة إلى تنظيم ما بلغوه من تمدّن . وعلى هذا الأساس سعى « زيدان » إلى درس مناصب الدولة وتشعّبها ، والخلافة وحقوقها ، والوزارة وتعدّد مقاعدها ، والإمارات وأمرائها ، والولايات وعمّالها مع أشكال رواتبهم . ثم أتبع الكلام بكلام على الجند مع ذكر عُددهم وعَددهم ، وكلام على بيوت المال ، والصدقة ، والغنيمة ، والفيء ، والجزية ، والخراج ، والضرائب ، والإقطاع ، وكلام على البريد بمعناه وطرقه ، وعلى القضاء وماهيّته ، والقضاة ورواتبهم ، ودواوين الكتابة والإنشاء والتوقيع .

الجزء الثاني . أمّا الجزء الثاني من الكتاب فموضوعه **الثروة** . وقد تكلّم « زيدان » عليها منذ أيّام النبيّ حتى نهاية الحكم العباسيّ ، وبيّن الأسباب التي دعت إلى اختلافها وتقلّبها باختلاف كلّ عنصر وتقلّبه ، كما درس علاقتها بطبيعة كلّ حكم . حتى إذا وصل إلى العصر العباسيّ

اعتبر أنّه وصل إلى ما بدأت تبلغه الثروة من كمال وسعة ، فقسم هذا العصر قسمين : أوّلهما يبحث في أسباب نضج الثروة وازدهارها ، وثانيهما يبحث في أسباب تقلّصها واضمحلالها . والثروة عند «زيدان» تعني ما يتبقّى في بيت المال من الدخل بعد صرف النفقات . وهي في القسم الأوّل تمتاز بكثرة الجباية والخراج وبقلّة النفقة ، كما تمتاز في القسم الثاني بكثرة النفقة وقلّة الجباية والخراج. أمّا أسباب **ازدهارها** فسعة المملكة ، ونهوض الناس إلى الزراعة والعمران ، وقلّة الموظّفين ، واقتصاد الخلفاء ، ونزاهة العمّال في ولاياتهم . وأمّا أسباب اضمحلالها فضيق المملكة ، وانشغال الناس عن العمران بالفتن ، وإسراف الخلفاء ، وتحوّل البلاد الى إمارات كلٌّ منها يجتبي المال لنفسه .

هذا من ناحية طبيعة الثروة في الحكم . أمّا من ناحية طبيعتها في الشعب فقد وجد « زيدان » أنّها اختصّت بها المدن ، وانحصرت بالطبقة الحاكمة ومن يدور في فلكها ، وامتنعت عن طبقات الشعب التي كانت على وضع من الفقر مدقع .

ولعلّ هذا الجزء هو أصعب ما أقبل «زيدان» على الكتابة فيه ، لما تحتاجه الثروة إلى تخريج لها من مجلّدات ومصنّفات قد تكون على سعة في كتب الأدب مثلاً ، وعلى ضيق في كتب الجباية والخراج. ورغم نهوض جماعة لا بأس بها إلى التأليف في هذا المضمار ، فإنّ هذا الجزء يظلّ مرجعاً يُعتبر كلُّ ما جاء بعده من كتب عيالاً عليه .

الجزء الثالث . ومن البحث في الثروة انتقل « زيدان » إلى البحث في مظهر آخر من مظاهر التمدُّن هو **العلوم والآداب** ، موضوعة ومترجمة . فأفرد جزء كتابه الثالث لما تكلّم عليه في كتابه « تاريخ

آداب اللغة العربيّة » الذي يغني بحثُنا فيه القارىءَ عن العودة إليه . غير أنّ الإفادة التي نصيبها من هذا الجزء ترجع إلى كون «زيدان» قد أخذ بالعلوم حسب المصنّفات لا حسب العصور . فأورد فصلاً عن العلوم الشرعيّة الإسلاميّة مثلاً ، ثم فصلاً عن العلوم الدخيلة ، ففصلاً عن طرق نقلها في العصر العباسيّ ، فآخَرَ عن ذكر الكتب التي ترجمت ، وفصلاً أخيراً عن تأثير الإسلام في هذه العلوم .

ويَدخل « زيدان » في مظهر آخر من مظاهر التمدّن الإسلاميّ ، لا يقلّ صعوبة عن مظهر الثروة ، بل هو أخطر بحثاً ، وأوعر مسلكاً ، وأدعى إلى إمعان الفكر واستقامة الرأي ، من أيّ مظهر آخر . وهذا المظهر هو المظهر السياسيّ ، وما هو بحاجة إليه من « إرجاع الحوادث إلى أسبابها ، وبيان ارتباطها بعضها ببعض ، مع تطبيق أحكام العقل ونواميس العمران فيها » ، على حدّ تعبير المؤلّف .

الجزء الرابع . **فالسياسة** ، إذاً ، هي مدار بحث الجزء الرابع في الكتاب . ورغم حاجة هذا الموضوع إلى أكثر من جزء ، فإنّنا نجد « زيدان » قد قدر على الإلمام به ، والإحاطة بأصوله وظواهره ، ممّا لا نجده متوافراً في أيّ كتاب آخر حتى اليوم . ولعلّ قيمة هذا الجزء آتية من كون « زيدان » قد خرج بأحكام صحيحة أغلب الأحيان ، من خلال درسه العلميّ للوقائع السياسيّة ، ولطرق انتقال الخلافة من يد إلى يد ، وأسباب تنازع العرب على الحكم ، وتأثير عوامل الأجناس والمذاهب التي لعبت أخطر الأدوار في تسيير الدولة العربيّة الإسلاميّة عبر العصور . والذي يميل إلى عرض هذا الجزء يرى أنّ المؤلّف قد مهّد لهذا المظهر السياسيّ بكلام على العرب قبل الإسلام ، حدّد فيه المحاور السياسيّة التي عاشوا ضمنها ، ثم انتقل إلى العصر الراشديّ فألمّ بسياسة

خلفائه ، وبالأسباب التي دعت العرب إلى الفتوح والمهاجرة . وعـاد فأردف الكلام بكلام على الأمويّين ومـا عمدوا إليه من تنشيط العصبيّة ، وأخذ الأمور بالقوّة ، والتعصّب على غيرهم من الشعوب ، واصطناع الرجال والقبائل ، في سبيل تثبيت دعائم الملك والإبقاءِ على ما يرونه متوافقاً ومصالحهم في الخلافة والناس .

أمّا العصر العباسيّ ، وهو أهمّ العصور في درس ظواهر التمدّن عند « زيدان » ، فقد بيّن فيه أسباب انتقال الخلافة من يـد الأمويّين إلى العباسيّين الذين أفاض في شرح تدخّل عنصرَي الفرس والترك في شؤونهم ، كما أفاض في بحث سياستهم التي أقاموهـا على سبيل تأييد سلطانهم ، فوجدهـا سياسة فتك وغـدر ، وفي بحث سياستهم التي أوجدوها على سبيل معاملتهم لرعاياهم ، فوجدها على سعة من العدل ، وحريّة الفكر والدين ، وتنازع العناصر ، وذهاب العصبيّة العربيّة ، واختلاط الأنساب عجماً وعرباً على حدّ سواء .

وينتهي هذا الجزء بعد بحث في سياسة بني «أميّة» في «الأندلس» ، وسياسة الدولة الفاطميّة ، وظهور العصر المغوليّ الذي قطع ما كان بعدُ نابضاً في جسد المملكة العباسيّة المريضة .

الجزء الخامس . أمّا الجزء الخامس والأخير فهو ، كما يقول المؤلّف ، « أكثر سائر الأجزاء طلاوةً ، وأقربها إلى أفهام المطالعين ، على اختلاف طبقاتهم ، وتفاوت معارفهم ، لأنّه يبحث في مثل ما ألفوه من العادات والآداب ، ممّا تلذّ مطالعته ، وتتوق النفس إلى معرفته ، من الأبحاث الاجتماعيّة ، والموضوعات العمرانيّة ، والأحوال العائليّة » .

وعلى هذا الأساس كان لا بدّ «لزيدان» من البحث في أبّهة مملكة

العرب **وحضارتهم** ، وفي أنظمتهم **وآدابهم الاجتماعيّة** . فهـو إذا بحث في نظـام الاجتماع نجده يدرس طبقات الناس من خاصّة وعامّة ، فيذكر الحكّام والخدم والجواري ، كما يذكر المغنّين وأهل الفنون الجميلة ، والتجّار ، والمزارعين . وهو إذا بحث في الآداب الاجتماعيّة نراه يدرس مناقب العرب ، وحالة المرأة ، ووضـع العائلة ، وطرق الطعـام واللبـاس والمأوى . وهو إذا بحث في حضارة الدولة نراه يذكر عمران المدن والقصور ، وثروة الخلفـاء ، وأمور البـذخ والرخاء والتهتّك . وهو إذا بحث في أبّهة الدولة ، نراه يذكر مواكب الخلفاء ، وألعابهم ، ومجالسهم ، وما يتفرّع عنها من مجالس مناظرات وعلم وأدب ، ومجالس لهو وغناء وخمر .

وخاتم القول : لم يكن « تاريـخ التمدّن الإسلاميّ » هو الكتاب الوحيد الذي ألّفه « زيدان » في التاريخ ، إنّما هناك كتب عديدة ألّفها وضمّنها نظريّاته في كتابة التاريـخ ، فكان النشوء والارتقاء والانحلال ، وكان درس الأسباب والنتائج ، كما كان الاستقراء العلميّ ، أسس البناء التاريخيّ المدروس في رأي « زيـدان » . ولكن ، رغم هذه المؤلّفات التاريخيّة الكثـيرة التي ملأت صفحاتِها ريشةُ « زيدان » ، يظلّ « تاريخ التمدّن الإسلاميّ » رائعـةَ الرجل في رحاب التاريخ .

٣ - رائد التاريخ الأدبي[1]

١ - أثر « زيدان » .

حقبة من التاريخ ، قريبة العهد بنا ، أورقت فيها بذورُ نهضة ، زرعها العالم العربيُّ منذ أوائل القرن التاسع عشر قصدَ التمرّد ، بيقظة وطنيّة واندفاع قوميّ ، على نير الحكم الأجنبيّ الذي عراه بعضٌ من تقلّص إثر وعي الشعور الإنسانيّ ، ونشدان الحرّية ، والحدّ من رسف العدالة الاجتماعيّة ، وبدء ظهور المرأة الشرقيّة طالبةَ علم ، وعنصراً فاعلاً برز جديد النزعة إلى الإسهام في حقول للحياة ما عملت قبلُ بها .

وإذا كان لمطابعَ عدّة نصيب الرائد في دخول الطباعة إلى الشرق العربيّ، ولبعض الصحف نصيب النهوض بالصحافة العربيّة، وللجامعات والمدارس نصيب فتح أبواب المعرفة أمام العرب ، ولمكتباتِ كثيرٍ من دول الشرق والغرب نصيبُ حفظ الآثار والمخطوطات الثقافيّة العربيّة ؛ وإذا كان « لليازجيّين » و« الشدياق » و« يعقوب صروف » و « أديب إسحق » و« فرح أنطون » و «شبلي الشميّل » و « الريحاني » و « أحمد

شوقي » و « خليل مطران » نصيبٌ في إحياء اللغة ، والنثر الفنيّ والعلميّ ، والجرأة الفكريّة ، وردّ الشعر إلى نضارته القديمة ، وإعادة جوّ الأمثال والحكم والرحلات، فإنّ « لجرجي زيدان» و «زيدان» وحده ، عملَ الرائد الأكبر ، باستثناء المستشرقين ، على تفاوت ما بينهم في العمق ، وفهم جماليّة اللغة ، والنزاهة ، في تدوين تاريخ آداب اللغة العربيّة الذي من المحال أن تجده عند غيره من معاصريه ، ومن الصعب أن تقارنه بنتاج من أتوا بعده رغم هذه الأضاخيم التي لا تغنيك عن الرجوع إليه مصدراً من مصادر العمق الفكريّ والتقصّي الموضوعيّ في كلّ ما دبّجت يراعته التي دأبت ، طيلة ربع قرن ، في إحياء التاريخ الأدبيّ الذي يعتبر العرب من أسبق الأمم التي كتبت فيه وترجمت لحياة أعلامه .

ولكن ، رغم هذا السبق الذي حفظ لنا الكثير من حضارتهم وأدبهم ، فمن المغالاة اعتبار ما كتبوه تاريخيّاً بالمعنى المراد به اليوم ، والذي كان المستشرقون أوّل من تصدّى له وقام على درسه، خاصّة في هذا القرن ، وقد ظهرت محاولات عدّة من العرب أنفسهم في جعل كتابة التاريخ الأدبيّ فنّاً لا يقلّ قيمة عن بقيّة الفنون . إلاّ أنّ تلك المحاولات ظلّت مفتقرة إلى العمق والتحليل والتقصّي ، ممّا يؤكّد أنّ « جرجي زيدان » هو وحده الذي قدر على هذا الفنّ ، فكان كتابه « تاريخ آداب اللغة العربيّة » المرآة الصافية التي انعكست عليها منزلة العرب الأدبيّة والاجتماعيّة والعلميّة من حياتهم ، وحياة بقيّة الشعوب الراقية .

٢ – إعتماد العصور في التقسيم .

إتّخذ « جرجي زيدان » في تقسيم كتابه طريقةً تأثّر فيها بالنمط الذي سار عليه المؤرّخون الانكليز ، **فقسمه حسب العصور** آخذاً بأحوال الحياة الثقافيّة في كلّ عصر على حدة . وهكذا نراه يشعّب من العصور عصراً إثر عصر ، ومن العصر دوراً إثر دور ، فيجيء كتابه ، **بأجزائه الأربعة** ، متضمّناً عصر الجاهليّة وصدر الإسلام والعصر الأمويّ في الجزء **الأوّل** ، ثم العصر العباسيّ بأدوار منه ثلاثة في الجزء **الثاني** ، ثم الدور الرابع العباسيّ فالعصر المغوليّ فالعصر العثمانيّ حتى حملة « بونابرت » في الجزء **الثالث** ، ثم عصر النهضة بدءاً من خروج الفرنسيّين من « مصر » حتى مطلع القرن الذي نعيش ، في الجزء **الرابع** .

٣ – الجاهليّة .

حاول « زيدان » ، قبل دخوله في تدوين الآداب العربيّة ، أن يوفّق ، من حيث وجود أوجه شبه ، بين مصادر آداب اللغات بوجه عامّ . فتطرّق إلى خصائص الأمم منفردةً ومجتمعة ، وخلص إلى تقاربها من حيث مراحل حياتها ، وإلى تباعدها من حيث طبائعها التي تمتاز فيها أمّةٌ عن غيرها من الأمم ، خاصّة بسبب المناخ والبيئة . ومن ثم عاد إلى الدخول في الآداب العربيّة ، فبدأ **بالجاهليّة الأولى** التي ردّها ، بحكم غير قاطع ، إلى عصر « حمورابي » ولغة شعبه البابليّ ، جاعلاً من اللغة البابليّة لغة عربيّة ، في حين أنّ العربيّة ، بانقسامها إلى شماليّة وجنوبيّة ، لم

تكتمل وتنفرد عن بقية اللغات بما لها من سمات متعدّدة إلاّ عندما اختلط عرب الجنوب ، بعد هجرهم « اليمن » ، بعرب الشمال . وقد يكون هذا التوغّل في التاريخ سبباً لإظهار أسبقيّة العرب بين سائر الأمم إلى الحضارة بما فيها من تشريع ، وعلم أرصاد فلكيّة ، وأدعية دينيّة ، ومسائل رياضيّة . وإذا دلّ هذا التوغّل على شيء فإنّما على تعصّب « زيدان » لعروبته التي حاول تبرير وجود لغتها منذ القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، مع العلم أنّ « ثمود » و « جديس » و « طسم » ، وهي قبائل من العرب البائدة ، لم يصلنا منها إلاّ ما جاء في القرآن الكريم وما تناقله الرواة ، ومع العلم أنّ لغة « حِمْيَر » ولغة « سبأ » ، وكلتاهما لسانا قبيلتين من العرب العاربة في القرن العاشر قبل الميلاد ، لم تكونا أكثر من شقيقتين للعربيّة . وإذا كان خطأً ردُّ اللغة العربيّة إلى البابليّة ، فمن الخطإ أيضاً اعتقاد « زيدان » أنّ سِفر « أيّوب » ، وهو قبل شريعة « حمورابي » ، شعر عربيّ تُرجم إلى العبرانيّة وضاع أصله كما ضاع أصل « كليلة ودمنة » ، توخّياً منه أنّ العرب هم أوّل من قال الشعر .

أمّا **الجاهليّة الثانية** ، وهي العصر الذي جاء قبل ظهور الدعوة الإسلاميّة ، فيبتعد « زيدان » فيها عن الحدس والتخمين اللذين تبعهما في دراسة الجاهليّة الأولى . ويحاول استخراج هذه الجاهليّة بسياستها وعمرانها وارتقائها التجاريّ والاقتصاديّ من خلال مفردات **اللغة** التي « لا تتولّد فيها كلمةٌ إلاّ للتعبير عن معنى حدث في أذهان أصحابها » . أمّا آراء شعبها وتعقّلهم **فكانت** لديه سبباً لما أعطوه من أمثال وكنايات في عباراتهم ، وفنون بدائيّة كالأحاجي والألغاز في عقليّتهم ، وقرض للشعر رائع في مخيّلتهم ، وصدق وتأمّل في نظرتهم

إلى أمور في الحياة كثيرة . وكذلك يستنتج تقديرهم واحترامهم للعلم والثقافة من خلال الألقاب التي كانوا يلقونها على أصحاب العلم والأدب الذين أدرج في سياقهم قيمة المرأة من توافر أخبار شجاعتها وحزم رأيها وتذوّقها الأدب وقولها الشعر . ثم يعود لدرس اللغة من حيث نشأتها وتكوّن الأفعال ، والأسماء ، والحروف ، وصيغ الاشتقاق، وأساليب التعبير ، والتأثيرات الخارجيّة بعد اختلاط العرب بالأمم الأخرى ؛ واكتساب ألفاظ وتعابير جديدة اقتبسها العرب عن الشعوب التي اتّصلوا بها عن طريق التجارة والحروب والديانات . فكان من الكلام الدخيل ، حسب رأيه ، أسماء العلوم التي لم يكن للعرب معرفة بها ، وقد أخذوها عن غيرهم ، كأسماء **العقاقير** ، **والمصطلحات الدينيّة والأدبيّة** عند الفرس واليونان ؛ **والمصطلحات الدينيّة والأدبيّة** عند العبرانيّين والحبشيّين ؛ **والمفردات التجاريّة** عند الهنود في لغتهم السنسكريتيّة .

وإثر هذا الفيض من المفردات وتعدّد اللهجات تنقرض لغات الجنوب، « كالمسنّد » لغة « حمير » ، و« الزبور » لغة « حضرموت »، و« الزقزقة » لغة « الأشعريّين »، و« الرشيق » لغة « عدن » ، وتبقى لغات « الحجاز » وسائر الشمال ؛ ثم تصفّى هذه ولا يصمد منها إلاّ الشعر الجاهليّ ، والقرآن الذي ذهب بجميعها إلاّ لغة « قريش » ، وما انتقاه علماء اللغة من ألفاظ بقيّة القبائل .

أمّا **مميّزات اللغة العربيّة** فأهمّها : حكايات الأصوات ، والإعراب الذي ربّما يكون ظاهرة أخذت بها أغلب اللغات القديمة إلى حين، ودقّة التعبير التي تظهر من خلال اللفظ الخاصّ بكلّ معنى ، والقدرة على الإعجاز والإيجاز من خلال روعة الكناية والمجاز وسائر أساليب البديع،

وكثرة الاشتقاق ، والإشارات ، وخلق المرادفات والأضداد من خلال النعوت التي أصبحت أسماء ، وصنعة السجع من خلال المرادفات أيضاً، وتعدّد المعاني للّفظ الواحد .

وينتقل المؤلّف من دراسة اللغة إلى **الشعر الجاهليّ**، فيحدّد الشعر بأنّه « صورة ظاهرة لحقائق غير ظاهرة » . ورغم افتقار هذا التحديد إلى جانب آخر في الشعر وهو الحقائق الظاهرة ، فإنّه تعريف هو من أقرب ما حدّد العرب إلى الشعر الذي كان تحديده في الأغلب كلاماً على النظم قافية ووزناً واستعارة وأوصافاً. ثم يوحّد بين نشأة الشعر والغناء عند الأمم: فالشعر قد وُضع أصلاً لإنشاده للآلهة والملوك ، وقد عُرف أنّ الشعراء العرب كانوا يغنّون شعرهم ، أو يستعينون على غنائه بغلام رخيم النبرة ، حتى بعد مجيء الإسلام . ولعلّ تسمية « الأعشى » بـ « صنّاجة العرب » يؤكّد هذا القول ، خاصّة وانّ أغلب الشعر العربيّ شعر غنائيّ ، كان لأوزانه ، على الأرجح، أصل في سَوق الجِمال أو الحداء الذي كان أقرب إيقاع إلى وزن الرجز من أيّ وزن آخر ، وهو أوّل بحر قَرض العرب الشعر عليه .

هناك ميزة قد تكون شاملة لطبائع الشعوب ، وهي أنّ **نهضة الشعر والأدب** تحدث قُبيل ، أو إثر ، حادثةِ انقلاب أو فتح أو نصر أو تبديل اجتماعيّ . و« لزيدان » دلائل كثيرة يجدها في أناشيد الهنود القدماء إثر تنازعهم السيطرة ، وفي شعر اليونان إثر فِتنهم ما بينهم وحروبهم مع الفرس ، وعند الرومان أيّامَ تنازعهم والقرطاجيّين ، وعند الأوروبيّين بعد خروجهم من الحروب الصليبيّة على انهزام وتقهقر، وعند اليهود في مراثي « ارميا » وغيرها بعد سبي البابليّين لهم. ولم يكن شأن العرب، وبدو « الحجاز » خاصّة ، مختلفاً عن الشعوب الأخرى: فقد عرف الشعر عندهم مخرجاً له إثر حروبهم مع الحميريّين والأحباش

من جهة ، وحروبهم فيما بينهم من جهـــة أخرى ، حتى أصبح الشاعر لسان قبيلته ، يطلبون قريحته للردّ على أعدائهم ، والذود عن حياضهم ، ويلتمسون مكانته عند كثير من الملوك والأمراء .

وبموضوعيّة عامّة واختصار مكتنز ، يبيّن « زيدان » **خصائص الشعر الجاهليّ** ، ويترجم لحياة أصحابه . ومن ثم ينتقل إلى **الخطابة** التي عدّها « من قبيل الشعر ، أو هي شعر منثور وهو شعر منظوم ، لكلّ منهما موقفه » ... « وممّـا يدلّ على تشابه الشعر والخطابة أنّ الغالب في الشعراء أن يخطبوا ، والخطباءِ أن ينظموا ، فيكون الواحد شاعراً وخطيباً . والقبائـل التي كثر خطباؤها هي غالباً التي كثر شعراؤها ... وكان العرب يخطبون بعبارة بليغة فصيحة وهم أميّون لا يقرأون ولا يكتبون ، وإنّما كانت الخطابة فيهم قريحـــة مثل الشعر » .

لا بدّ لنا ، في كلامنا على النثر عامّة والخطابة خاصّة ، أن نعود إلى الجاهليّة رغم أنّها مطلعة شعر لا نثر . أو هذا ما وصل إلينا . ولا بدّ من الاعتقاد أنّ النثر بدأ خطابة ، والخطابة بدأت سجعاً عُرف عند رواة أمثالها وكهّانها وخطبائها . أمّا **السجع** فقد بدأ شعراً تفلّت من الوزن واحتفظ بالقافية بمقدار . أمّا عدّ الخطابة من قبيل الشعر ، أو هي شعر منثور ، وعدّ الشاعر والخطيب خطيبـــاً وشاعراً في آن ، وتسميته شاعراً إن تفوّق شعره على خطابته ، وتسميته خطيباً إذا غلبت خطابته على شعره ، فهذا أمر يأخـذ من الحيطة بمكان ، إذ إنّه ما يزال يدور على محاور الشكّ لعـــدم توافر نصوص من الخطابـة في الجاهليّة ، عكس الحال مع الشعر . وبالرغم من أنّ المؤلّف حـاول تأكيد رأيه بأنّ الإباء والاستقلال اللذين تمتّع فيهما الرومان وجاهليّتنا

اليونان والعرب باعثان على الخطابـــة والشعر ، وأنّ الذلّ والضعف اللذين أصابا اليهود جعلاهم راغبين في خيالهم الشعريّ عن الخطابة إلى الشكوى والتضرّع ونظم المراثي ، فإنّ رأيه يظلّ محطّ تساؤل لا تجد له جواباً طالمـــا جوابه يكمن في ما وصل إلينا من خطابة العصر الجاهليّ .

ومن الخطابة ينتقل « زيدان » ، قبل بدئه بالعلوم الطبيعيّة ، إلى **الاخبار أو التاريخ** في الجاهليّـــة ، وإلى **أسواق** أدبها ومجالسه ، وإلى **الأنساب** التي وجـد فيها العرب رغبـة في التعـالي على الغير ، فكان أن انقسمت إلى ستّ طبقات ، أوّلها **الشعب** ، وهو النسب الأبعد « كعدنان » و« قحطان » ؛ وثانيها **القبيلة** ، وهي ما انقسمت فيها أنساب القبائل إلى مثل « ربيعة » و« مضر » ؛ وثالثها **العمارة** ، وهي ما انقسمت فيها أنساب القبائل إلى مثل « قريش » و« كنانة » ؛ ورابعها **البطن** ، وهو ما انقسمت فيه أنساب العمارة إلى مثل « بني عبد مناف » و « بني مخزوم » ؛ وخامسها **الفخذ** ، وهو ما انقسمت فيـه أنساب البطن إلى مثل « بني هاشم » و « بني أميّة » ؛ وسادسها **الفصيلة** ، مثل « بني أبي طالب » و« بني العباس » .

وهكذا يخلص من اللغة والشعر والخطابة وغيرها إلى **العلوم الطبيعيّة** كالطبّ والبيطرة والخيل والأنواء ومهابّ الرياح .

أخذ العرب الطبّ عن الكلدانيّين ، واقتبسوا أشياء كثيرة منه عن « مصر » و « أشور » و « الفرس » . وكان لهم طريقتان في التطبيب ، أولاهمـا طريقة **العلاج الحقيقيّ** ، وثانيتهما طريقة **الكهّان والعرّافين** الذين اعتمدوا الرُّقى والسحر والدعاء وتقديم الذبائح في الكعبة لإخراج

الجنّ أو الشياطين من أجساد مرضاهم . ومن أطرف المعالجات أنّهم ، إذا توجّس الإنسان مرضاً ، منعوه عليه بجعله ينهق نهيق الحمير ! ثم إنّ الحجامة والكيّ والقطع والبتر وردّ الفساد عن الأعضاء بالنار كانت محور الجراحة عندهم . حتى إنّهم ألمّوا بجزء من علم التشريح وأحوال الأعضاء وأوصافها . إلاّ أنّ « ابن خلدون » يرى عكس ذلك ، فهو يعتبر الطبّ آنذاك نوعاً من « تجربة قاصرة على بعض الأشخاص متوارثة عن مشايخ الحيّ وعجائزه » . وإذا كان « زيدان » قد غالى في مستوى الطبّ ، فإنّ « ابن خلدون » قد أسقط كثيراً من وجوده .

أمّا علم البيطرة والخيل فقد كان لعرب الجاهليّة معرفة فيه لا بأس بها . وربّما لم يسبقهم إليها أحدٌ لقيمة الأفراس عندهم . ثم هناك علم الريافة ، أي طريقة استنباع الماء بشمّ التراب أو ريح النبات ؛ وعلم الاهتداء بأمارات يعرفونها بالأتربة أو بالنجوم ؛ وعلم نزول الغيث ، وعلم الملاحة ، وقد أُجبروا عليها لسبب أسفارهم إلى «الهند» و«الحبشة» ، وعلم الأنواء الذي يقابَل بعلم الظواهر الجويّة ، وقد كان فرعاً من علم النجوم لنسبة تلك الظواهر إلى طلوع الكواكب ومغيبها ؛ وعلم مهابّ الرياح الذي كانوا بحاجة إليه بغية الاهتداء في أسفارهم . ناهيك عن العلوم الرياضيّة ، كالفلك والنجوم ، ومعظمها دخيل عليهم خاصّة من الكلدانيّين ، كمواقع الأبراج ومنازل الشمس والقمر . أمّا الميثولوجيا ، وهي عبارةٌ أكثر ما نجد لها أثراً عند اليونان ، فقد كانت من قبيل علومهم ودياناتهم وموارد أساطيرهم . فقد عبد العرب الأجرام ، ونستدلّ على ذلك من أسماء بعض آلهتهم : « فاللات » اسم آخر للزهرة . ثم إنّ أساطير جميلة ولّدتها الميثولوجيا العربيّة ، كأسطورة « سهيل » الذي عدا وراء الجوزاء فركلته برجلها فرمته حيث هو ، فضربها بالسيف فقطع وسطها . وكأسطورة « الشعرى »

الشاميّة التي كانت مع « الشعرى » اليمانيّة وفارقتها عابرة المجرّة فسمّيت « بالشعرى » العبور ، فلمّا رأت « الشعرى » اليمانيّة فراق الشاميّة لها بكت حتى غمصت عينها فأسميت « بالشعرى » الغميصاء .

وهناك علم التوقيت الذي اتّبعوا فيه التأريخ بكلّ سنة وقع فيها أمر مشهور ، كأمر ما أسموه « معركة الفيل » وهو سنة هاجم الأحباش « مكة » . كما إنّهم أرّخوا حسب السنة القمريّة ، وهي ذات أشهر كانت بأسماء غير التي نعرفها اليوم ، كالمؤتمر وناجر وإخوان وصوان ، وما إلى ذلك من الأسماء التي نجدها في كتب الآثار الباقية ، «كالأغاني» و « العقد الفريد » و « أمثال الميداني » و « الكشكول » .

أمّا علوم **ما وراء الطبيعة** فقد عرف العرب منها الكهانة ، وهي تفيد العلم بالمستقبل ، والعرافة ، وهي تختصّ بمعرفة الماضي ، وكلاهما دخيل من الكهّان الكلدان أيضاً ؛ والقيافة ، وهي قسمان : **قيافةُ الأثر** ، وتختصّ بتتبّع آثار الأقدام أو الحوافر ، **وقيافة البشر** ، وتختصّ بهيئات الأعضاء والملامح ، وهي نمط من الفراسة التي برع العرب فيها فاستدلّوا بواسطتها على هيئة الإنسان وأشكاله وأقواله .

٤ – صدر الإسلام .

حياة أحاط « جرجي زيدان » بأغلب ظواهرها لينتقل إثرها إلى عصر صدر الإسلام الذي جمع صاحبُ دعوته العربَ ، على اختلاف أنسابهم ومواطنهم ، تحت رايته ، والذي اقتدى خلفاؤه به ، فنشروا رسالته ، وعمّ الإسلامُ العربَ ، فنهضوا للفتح حتى شكّوا ببارقهم في ضفاف « الكنج » شرقاً ، وشواطىء « الأطلسي » غرباً ، وضفاف

نهر « لورا » شمالاً ، وأواسط « افريقيا » جنوباً ، واحتلّوا مواطن الفرس والرومان ، فرغبوا عن إنشاد الشعر إلى القرآن وحفظ آياته . وقد غيّر هذا الانقلاب الدينيّ السياسيّ الاجتماعيّ في آداب العرب وعلومهم ، فطمس البعضَ منها ، وأكثر من البعض الآخر للدعوة الجديدة ، وأحدث آداباً لا عهد للجاهليّة بمثلها ، كالعلوم الشرعيّة واللسانيّة ، وبدأ بنقل الفلسفة والطبيعيّات والطبّ عن الأمم الأخرى .

أخذ العرب **بالخطابة** كعامل يساعدهم في الفتوح والدعوة النبويّة ، والحدّ من سوء بعض العواقب والثورات والفتن. وقد كثر عدد الخطباء، وكان أكبرهم الرسول والخلفاء والقوّاد . غير أنّ **الشعر** أصيب ، عكس الخطابة ، بشبه خمود، إلاّ ما يقال منه في ذمّ الإسلام والرسول وما يردّ به عليه الشعراء المسلمون . وقد أعرض الرسول عن الشعر الذي قالته « قريش » ، إلاّ أنّ له رأياً آخر في الشعر يبدو من خلاله أنّه معجب بكثير من الشعر الذي يدعو إلى الحقّ والكرامة ، وخاصّة الإيمان . وكذلك كان نصيب الشعر عند الخلفاء . غير أنّنا لا نجد واحداً منهم إلاّ قال شعراً ، أو تمثّل به ، غير أنّهم كانوا يمنعون الشعراء من هجو الإسلام ، وأشدّهم وطأةً في ذلك « عمر بن الخطاب » .

وكان على العرب، إثر تشرّبهم روح القرآن والأخذ بكلامه البليغ، أن يعنوا في **أسلوب إنشائهم وأبوابه**، فظهرت مخاطبات الخلفاء والقوّاد والمخابرات السياسيّة ، وبان تأثير القرآن في اللغة بما غيّر من بعض معاني ألفاظها حسب اقتضاء الاطّلاع الدينيّ والشرعيّ والفقهيّ .

وبعد دراسة « زيدان » **للخطّ** العربيّ وأوّل حرف كُتب فيه القرآن ، وطريقة تطوّره وتبدّله وتفرّعه ، يدخل في العصر الأمويّ الذي أصبحت فيه الدولة الإسلاميّة بيد الأمويّين في « الشام » . ولهذا العصر أوجه اختلاف وتباين عديدة عن عصر صدر الإسلام ، إذ إنّ انتقال الحكم إلى الأمويّين أحدث انقلاباً كبيراً في التاريخ العربيّ . فبعد أن كانت الدولة خلافة دينيّة وشوريّة أصبحت ملكاً عضوداً ووراثيّاً .

ويبيّن « زيدان » أسباب **التفرّق** بين القبائل ، وعودة **العصبيّات الجاهليّة** ، ويعتبر انتقال الدولة إلى الأمويّين أمراً طبيعيّاً في نواميس العمران التي وضع « عمر بن الخطاب » حدّاً لها بانكماشه ، وهذا ما يتنافى وسياسة الملك التي اتّبعها الأمويّون باحتكاكهم بالدول الأخرى واقتباسهم عنها التمدّن والعلوم .

ثم يظهر **حالة الشرق** ، ويكشف عن آداب الروم في « مصر » و«الشام»، وعن آداب مملكة الفرس ، وعن انتشار العربيّة بين المسلمين وعودة الأدب إلى آداب الجاهليّة لكون الأمويّين شديدي الحرص على منزلة العرب وحفظ أنسابهم . ويقسم آداب اللغة إلى **الحادثة** ، كعلوم القرآن والحديث والفقه والعلوم اللسانيّة، وإلى **ما نقل** عن اليونان والفرس. ويسمّي الأولى **بالعلوم الاسلاميّة**، والثانية **بالعلوم الدخيلة** . ويتكلّم على العلوم الشرعيّة المأخوذة من القرآن، والحديث الذي كان الصحابة يلجأون إليه كلّما أشكل عليهم تفسير آية قرآنيّة ، والذي تشعّب

كثيراً وأسند أغلبه إلى النبيّ من أجل إثبات حجّة أو موقف ، حتى عمد المسلمون إلى ذاك التشعّب وميّزوا بين الصحيح من الحديث والفاسد.

أمّا العلم الآخر من العلوم الشرعيّة فكان التفسير الذي اعتمدوا فيه إيضاح السور والآيات ، وأصبح علماً ينشط كلّما نشطت الدولة إلى الأحكام والقوانين . وكان المفسّرون أوّل الأمر هم الفقهاء ، كالصحابة ؛ غير أنّ الفقه لم يصبح قائماً ذا قيمة ينفرد بها عن غيره إلاّ حين أحسّ المسلمون بحاجة إلى القضاء بين رعاياهم والعناية في أحوالهم الشخصيّة ومعاملاتهم المدنيّة . وذلك من طبيعة الدول التي تعمر كثيراً ، كالعرب والرومان . وممّا يؤكّده المؤلّف أنّ « الفقه والقراءة والتفسير والحديث علم واحد . ثم أخذت هذه العلوم تستقلّ بعضها عن بعض عملاً بناموس الارتقاء . فلمّا استقلّ الفقه سمّوا أصحابه الفقهاء ، وكان لهم تأثير كبير في الدولة لما يترتّب على الفتيا من الأمور الهامّة ، كالعزل والتنصيب والقتل والعفو » .

و « لزيدان » آراء في **النحو والحركات والاعجام** نجد لبعضها جذوراً عند « ابن خلكان » و « ابن النديم ». وهي أنّ النحو طبيعيّ على لسان كلّ متكلّم يأخذ به من صغره . وقد تفوّه العرب بالخطب ، وأنشدوا الشعر ، وتراسلوا ، قبل تدوين النحو الذي أخذوا به خاصّة في ضبط معاني القرآن ، وفي ظروف فتوحهم . أمّا الحركات فقد اضطرّ العرب إليها لضبط الإعراب في قراءة القرآن أيضاً . وكان أوّل من رسم الحركات « أبو الأسود الدؤلي » واضع النحو ، وكان مراده من ذلك تمييز كلٍّ من الاسم والفعل والحرفِ من الآخر. أمّا صور الحركات التي وصلت إلينا فلا يُعلَم مَن واضعها ، وقد أخذت هذه الصور عن « الواو » فظهرت الضمّة مثلها ، وعن « الألف » فظهرت الفتحة ألفاً

مائلة ، وعن « الياء » فظهرت الكسرة كالياء أوّلاً ، ثم اتّخذت شكل الكسر أو الياء عند السريان الشرقيّين . وأمّا المدّة والشدّة والوصل والقطع ، فقبل أن تصبح على ما هي عليه اليوم كانت تكتب ككلمة فوق الحرف الذي هو بحاجة لإحداها . وأمّا الإعجام فجاء به العرب لتمييز بعض الحروف عن بعضها الآخر. وكان آخر حرف أُعجم هو الياء تفريقاً لها عن الألف المقصورة ، وذاك من عمل المرسَلين الأميركيّين .

وبعد هذا العرض للعلوم يأخذ المؤلّف **بالتاريخ** الذي ظهر بعد أن استتبّ الأمر للأمويّين . وقد وُضع التاريخ في قسمين: الأوّل يتضمّن تاريخ الإسلام ، والثاني يتضمّن تاريخ الأمم الأخرى ، وذلك رغبة من الخلفاء ، وخاصّة « معاوية » ، في معرفة أخبار مشاهير الأمم الأخرى. إلاّ أنّ الثاني وُضع قبل الأوّل في اعتقاد «زيدان»، وذلك للاقتداء بنبوغ قوّاد الأمم وطرق فتوحهم .

وممّا اقتضاه هذا العصر هو إحداث **ألفاظ جديدة في اللغة** ، تنوّعت للتعبير عن الحياة التي وصل العرب إليها . وبالرغم من وجود أكثرها في الجاهليّة ، إلا أنّها دخلت بمدلولات غير التي كانت لها سابقاً .

وأمّا **الشعر** فلا غرابة من عودة ازدهاره ورواجه ، لأسباب انقسام القبائل بالعصبيّة ، وسخاء بني « أميّة » على شعراء يدعون إلى سياستهم ، ووجود الحركة الأدبيّة في « البصرة » و « الكوفة » ، تلك الحركة التي اتّصل العرب بواسطتها بغيرهم من الشعوب .

وينتهي المؤلّف من أوّل أجزاء كتابه بعد درسه الشعر الأمويّ سبباً ونتيجة ، ملمّاً بعوامل ظهوره وتجديده ، مع ترجمة لأصحابه ،

وتبويب أغراض شعرهم ، ومنزلة كلّ واحد منهم .

٦ – العصر العبّاسيّ.

قسم « زيدان » العصر العباسيّ، في ثاني أجزاء كتابه ، أربعة أدوار ، لكلّ دور نعوت خاصّة في أدبه واجتماعه وسياسته . فكان **الدور الأوّل** ، وهو الذهبيّ من حيث السياسة والدولة ؛ وكان **الدور الثاني** ، وهو الذي رغب فيه الخلفاء عن الحضارة إلى أنفسهم ؛ وكان **الدور الثالث** ، وهو الذهبيّ من حيث وفرة الأدب والعلم ؛ وكان **الرابع** الذي تكلّم عليه من بدء الجزء الثالث ، وهو الذي بلغت فيه الموسوعات والمعاجم التاريخيّة والجغرافيّة مبلغاً كبير الشأن .

وقبل بدئه بالدور الأوّل يرجع إلى القرآن فيفرد له فصلاً يبيّن فيه تأثيره في العلوم التي تفرّعت منه ، والتي نشأت لخدمته ، ثم يظهر تأثيره في الخطابة والشعر والإنشاء واللغة والمجتمع العربيّ.

ومن ثمّ يشرع في هذا الدور ، أو المئة الأولى من سيادة العباسيّين في «بغداد»، بعد انقلابهم السياسيّ بمساندة الفرس، وجعلهم العاصمة على تخوم بلادهم ، وأخذهم الوزراء وأكثر الأمراء والقوّاد منهم .

عني خلفاء هذا الدور **بالعلم والأدب** عناية فائقة ، وأطلقوا عنان الفكر إلاّ في ما يمسّ الدولة أو الخلافة ، فتعدّدت البدع الدينيّة ، وأعطيت الحريّة في أخذ أيّ مذهب أو معتقد . وقد يكون ذلك نتيجة للدور الذي مثّله الوزراء الفرس والموالي .

وتنشط في هذا العصر حركة **العلوم العربيّة** التي كانت قبل الإسلام ، **والعلوم الاسلاميّة** كالشرعيّة واللسانيّة ، **والعلوم الدخيلة**،

وهي خلاصة ما أعطاه العلم والأدب والفلسفة في ممالك التمدّن القديم كالأشوريّين والبابليّين واليهود والرومان، وخاصّة الفرس واليونان الذين أخطأ المؤلّف في ردّ بدء فلسفتهم إلى الحروب الداخليّة، إذ إنّ الفلسفة اليونانيّة قد نشطت من قبل ذلك التاريخ بقرنين تقريباً على يد فلاسفة كبار «كطاليس». ثم يعرض عرضاً موجزاً **الفلسفة اليونانيّة**، ويترجم لكبارها ، ويفرد بعض الصفحات **لآداب** اللغة الفارسيّة والسريانيّة والهنديّة . والغاية من ذلك إنّما هي لتمهيد كلامه على نقل تلك الحضارات إلى العربيّة التي يعود فيتكلّم على علومها الأصيلة ، **كاللغة** التي أصابها تغيّرٌ واضح لما نُقل إليها من العلوم الدخيلة ، وما اقتضاه التوسّع في العلوم الإسلاميّة ، والمصطلحات العلميّة والفلسفيّة والإداريّة ، والألفاظ الطبيّة ، وأوصاف الأمراض ، وما دخل عليها من الكلمات العلميّة الأعجميّة وطريقة تراكيبها .

ثم يتطرّف ، في بعض من خطإ، وقبل أن يتطرّق إلى **الشعر** ، في جعل الحكّام العبّاسيين، عكس الأمويّين ، يقرّبون الأعاجم ويبعدون العرب ، في حين نرى أنّ العرب كانوا يشكّلون ركيزة ثابتة في الجيش والدولة والأدب والشعر الذي أغفل المؤلّف ذكر ما طرأ على أوزانه وما استُحدث منها، كالمتدارك والمضارع والمقتضب ، واكتفى بمميّزاته ، كطريقة النظم ، والمعاني الجديدة ، واتّساع جوّ المخيّلة، واستعارة بعض الألفاظ العلميّة والفلسفيّة في قرضه .

أمّا الشعراء فيصف ما أخذوا به من عناية ، وما أصابهم من تهتّك وخلاعة وزندقة وشكوك في الدين إثر إطلاق حريّة الأقلام والألسنة ، وما كان لهم من منزلة عند الخلفاء والأمراء ، ومن تأثير على الهيئة

الاجتماعيّة العباسيّة .

وينهج المؤلّف في الشعر وأبوابه وترجمة أصحابه نهجه الأوّل . ويُعنى في درس تأريخ معنى كلمة أدب ، وما كان المراد بهـا قبل الإسلام وبعده . ويبيّن قيمة **الادباء** التي من خلالها أظهر معنى الأدب بأغلب فروعه . ويذكر **الرواة** مع مدى صدقهم واصطناعهم الأشعار ، متقصّياً ذلك ليخلص إلى أنّ كثيرين منهم قد تعمّدوا الانتحال ، وهذا ما ناقشه « طه حسين » في كتابه « في الأدب الجاهليّ » .

وفي هذا الدور تقدّم البصريّون على الكوفيّين في ضبط **النحو** والتأليف فيه . وكان لكلّ من المدرستين مذهب في النحو يُعتبر البصريّون به أولى ثقة وأوسع علماً . وقد اشتهر في هذا العلم « سيبويه » ، وهو من الموالي ، و « معاذ الهراء » ، وهو أوّل من وضع التصريف . أمّا علماء اللغة فأشهرهم « الخليل بن أحمد الفراهيدي » الأزديّ الذي استخرج علم العَروض ، وعمل على تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو وتعليله .

ويدرج تطوّر **الانشاء** مع تطوّر بقيّة العلوم . فكان من ظواهره استبحاره في المدنيّة ، والإغراق في الحضارة ، ونزوعه أوّل الأمر إلى التطويل والإطناب والتنميق ، ثم تنوّع فروعه ومذاهبه وأساليبه ، ومن أهمّها **المرسَل** الذي أبدع فيه « ابن المقفّع » ، فدرس « زيدان » كتابه « كليلة ودمنة » مع سائر مؤلّفاته . وتعرّض بعد ذلك إلى **العلوم الشرعيّة** ، وترجم للأئمّة الأربعة وأصحابهم ، ثم درس **مؤرّخي** الفتوح والأنساب . ويبدأ في الدور العباسيّ الثاني ، أو المئة عام الثانية ، فيتتبّع الطريقة التي اتّبعها آنفاً ، مبيّناً تاريخ هذا الدور السياسيّ ، ثم مميّزاته ، وأشهر شعرائه ، ومميّزات أدبه الذي بعُد عن

الإسناد وتعوّد النظر باتّساع في اختبار الأدب وتقصّي الروايات ، حتى أصبح صناعة علميّة في الإنشاء والتأليف ، خاصّة على يد « الجاحظ » كبير كتّاب العربيّة .

ويستمرّ المؤلّف في اتّباع طريقته في الدور الأوّل ، فيذكر النحو والنحاة مع ترجمة لأهمّهم ، ثم ترجمة حياة من عملوا في اللغة ، والذين مهّدوا لظهور **المعاجم** بشكل واسع في العصر الثالث الذي يبدأ فيه بعد دراسة التاريخ والمؤرّخين ، والعلوم الإسلاميّة كعلم الكلام أو التوحيد ، وهو حديث على الفقه ، والعلوم الدخيلة كالفلسفة والرياضيّات والطبّ .

وبعد كلام موجز على **الزراعة** يبدأ « زيدان » في الدور الثالث الذي يبدأ باستقرار الدولة البويهيّة ، والذي يعتبر عصر الإسلام الذهبيّ من حيث **العلم** الذي نضج في اختلاف فروعه وموضوعاته ، وظهرت فيه الكتب الوافية . وهنا يردّ المؤلّف نهضة هذا العصر إلى انشغال الدول المتفرّعة ورغبة الأمراء في إحياء هذه النهضة العلميّة .

أوّل تلك الدول : الدولة البويهيّة في « العراق » و « فارس » .

وثانيها : السامانيّة في « تركستان » و « خراسان » .

وثالثها : الزياريّة في « طبرستان » ومقرّها « جرجان » .

ورابعها : الدولة الغَزْنويّة في « أفغانستان » و « الهند » .

وخامسها : الدولة الحمدانيّة في « حلب » و « الموصل » ، وأصلها قبيلة تغلبيّة عاشت بجوار « الموصل » . اشتهر من أمرائها « سيفُ الدولة » ممدوح « المتنبي » ، وكان صاحب ذائقة أدبيّة ونقديّة .

وسادسها : الدولة المروانيّة في « الأندلس » ، التي كانت في هذا الدور

في أوج مجدها . ومن ملوكها « الحكم بن ناصر » الذي أنشأ مكتبة في « قرطبة » كانت تعدّ من أعظم المكتبات لما حوت من كتب العالم .

وسابعها : الدولة الفاطميّة في « مصر »، اشتهر فيها « العزيز بالله » و « الحاكم بأمر الله » اللذان أنشئت في عهديهما خزائنُ كتب عدّها المؤلّف بمئات الألوف من المجلّدات. فكان لا بدّ، والحالة هذه، من جعل مزايا هذا العصر منحصرة بنضج العلوم ، **وكثرة المكتبات**، وظهور **الموسوعات** ، وتعدّد الكتب **السياسيّة** ، وعلوم **العمران** .

ولكنّ التأثير الأكبر من خلال تقدّم العلم والأدب ظهر في **الشعر** أكثر من سواه ؛ فبرزت ملامح للشعر جديدة حلّت القيود القديمة ، واقتبست كثيراً عن الفلسفة والتاريخ والطبّ والفقه ، وتولّدت منها أبواب كثيرة اقتضتها الحضارة الجديدة ، وزادت أبحره وأوزانه كما في الموشّحات الأندلسيّة ، وكثر نقده، وبرز فيه الوصف والمبالغة خاصّة في المدح . وكان أشهر الشعراء « أبو الطيّب المتنبي » و « أبو فراس » و « ابن هانىء الأندلسي » و « أبو العلاء المعري » ، وغيرهم من الذين ترجم المؤلّف لحياة كلّ منهم وأورد بعضاً من شعره .

وبعد أن كان « عبد الحميد » و « ابن المقفّع » إمامَي **إنشاء الترسّل** في الدور الأوّل ، و « الجاحظ » إمامه في الدور الثاني، أصبح أسلوب « ابن العميد » مدعاة إلى التقليد في هذا الدور . وقد اعتُني بإطالة العبارة ، والتوسّع في التنميق ، حتى صار إنشاء هذا الدور هو الطريقة المدرسيّة للترسّل العربيّ ، والتي من شروطها السجع والجناس والبديع ، وكثرة تضمين المراسلات أمثالاً وعبارات تاريخيّة واستشهادات شعريّة. ومن أشهر المنشئين: «الخوارزمي»، «وأبو إسحاق الصابي» ، و « الصاحب بن عبّاد » ، و «الهمذاني» ، و «الثعالبي» وهو

خاتمة مترسّلي هذا الدور .

أمّا **الأدب** فقد مال أكثر ما مال في هذا الدور إلى النظر في الشعر والشعراء من شرح أو انتقاد . وممّا لا بدّ من ذكره هو تعدّد أبواب الأدب ، وقدرة الأدباء ، بعد شيوع المنطق والفلسفة وعلم الكلام ، على النقد الممحّص بالمقابلة والموازنة .

وفي هذا الدور ظهرت القصص التي وضعها العرب عن أنفسهم ، كقصّة « عنتر » ، وقصّة « البراق » ،وقصّة « بكر وتغلب » ،وقصّة « شيبان » مع « كسرى انوشروان » ، وبعض القصص عن العشّاق العذريّين . وكذلك ظهرت الروايات التي نقلوها خاصّة عن الفرس والهند ، ككتاب « ألف ليلة وليلة » .

غير أنّ **النحو** ، عكس غيره ، لم يعرف الابتكار الواسع . وأهمّ النحاة « ابن خالويه » و « ابن جنّي » . وبالمقابل فقد عظم شأن **اللغة**، وأنشئت **المعاجم** ، ونبغ علماء اهتمّوا بأغلب أطراف اللغة .

وقد دعا هذا الدور ، لما جرى فيه من انقلابات سياسيّة ، إلى **انقسام التاريخ** إلى عامّ وخاصّ ، وإلى توسّع علم **الجغرافيا** لكتابة العرب في ما اكتشفوه من أماكن وبلاد ومسالك لم يسبقهم أحد إلى وصفها ، وذلك على أثر فتوحاتهم . أمّا **الفلسفة** فكان أكثر من عمل فيها « إخوان الصفاء » ، وهم جمعيّة سريّة كان أساس مذهبها أنّ الشريعة الإسلاميّة قد انحطّت ودخلت فيها ضلالات ، ولا سبيل إلى رفعها إلاّ بواسطة الفلسفة ، فمتى تنتظم الفلسفة اليونانيّة الشريعةَ الإسلاميّة يحصل الكمال .

ويبدأ «زيدان» جزءه الثالث بتصوير الانقلابات السياسيّة التي أدّى

أهمّها إلى ظهور دولة السلاجقة التي ظهرت والمملكة العباسيّة في انهيار وانقسام . وقد ضعف شأن البويهيّين الفرس في « العراق » و «بغداد» ، والفاطميّين العرب في « مصر »، فامتدّ اتّساع دولة السلاجقة من حدود« الصين » إلى آخر حدود « الشام » . وكانوا قد دخلوا «بغداد» سنة ٤٤٧ هـ ، وهي السنة التي اختارها « زيدان » كفاتحة للدور العباسيّ الرابع والأخير . يبدأ بعدها بذكر الصليبيّين وما أدّى إليه دخولهم الشرق من اختلاط بأهله، وقد أخذوا بكثير من عاداتهم . ثم المغول الذين حملوا على المملكة الإسلاميّة بقيادة « جنكيزخان » ، ثم بقيادة « هولاكو » الذي دخل « بغداد » وخرّب وأحرق وقتل ، ففرّ بعض العباسيّين إلى « مصر » فانتقلت خلافتهم معهم إليها . أمّا « الأندلس » فقد انحلّت في هذا الدور أيضاً ، وانقسمت إلى إمارات، بينما كان الإفرنج يستغلّون ضعفها ويسترجعون بلادهم إمارة بعد إمارة ، حتى أخرجوا المسلمين كافّة من « إسبانيا » .

أمّا إذا درسنا مميّزات هذا العصر غير السياسيّة ، فنجد أنّه امتاز **بانتشار المدارس** وتغيّر طرق التدريس ، **وبقاء أكثر مؤلّفاته** . أمّا الشعر فقد تبدّلت حاله لأسباب ذهاب مناصريه ، فرغبت القرائح عنه إلى الفقه والتصوّف . وغاضت مخيّلات الشعراء الذين اتّجهوا إلى شكوى الفقر وطلب العطاء ، وإلى الأدعية ومدح النبيّ والخلفاء الراشدين ، والإكثار من المعاني الصوفيّة . وعلى ما أصاب الشعر من كساد في القرائح فقد أصابه كسادٌ في قواعده وأساليبه ، باستثناء الموشّحات التي نقلها أهلها من « الأندلس » إلى الشرق .

وما أصاب الشعر أصاب **النثر** . فقد أصبح أهل الأدب أهل تزلّف وتملّق ، وآلت صياغة صناعتهم إلى عكس ما كانت عليه في الدور

الثالث . وقد أدّى تفرّع المملكة الإسلاميّة إلى تعدّد **المؤرّخين والتواريخ** ، فظهرت تواريخ أصحاب السير وتواريخ الدول ، وتراجم الجماعات أو المعاجم التاريخيّة ، وتواريخ البلاد التي هي من قبيل كتب أدبيّة .

ويعود «زيدان» إلى العلوم الإسلاميّة ويحاول الإيجاز فيها ،ويذكر « أبا حامد الغزالي » . وأمّا العلوم الدخيلة ، والتي ظهرت ثمارها في شرقيّ المملكة الإسلاميّة على يد « ابن سينا » خاصّة ، فقد انتقلت إلى « الأندلس » مع رسائل « إخوان الصفاء »، فنبغ فلاسفة وأطبّاء كثيرون «كابن باجة »، و«ابن طفيل »صاحب رسالة« حي بن يقظان»، و« ابن رشد » صاحب « المسائل في المنطق » ، و« تهافت التهافت »

٧ – عصر الانحطاط .

ويأتي العصر المغوليّ ،وتنحصر سيادة العرب في«اليمن» و«المغرب». وأمّا دخول المغول على المملكة الإسلاميّة فقد هدّدها بفناء أدبها وعنصرها ، وأبعدها عن الحكم مدّة ثلاثة قرون . أمّا بقاء اللغة العربيّة رغم هذا التهديد فيعود لأسباب،أهمّها أنّ اللغة العربيّة ظلّت لغة السياسة في معظم الدول ، وكذلك في الدين والعلم . حتى إنّ أكثر علماء المغول كان تأليفهم في العربيّة . على أنّ الفضل الأكبر في بقاء آداب العربيّة يرجع إلى « مصر » و« الشام » ، وهما في حوزة المماليك وما تبقّى من الأيوبيّين، إذ انتقل العلم في هذا العصر من عواصمه السابقة « كبغداد » و « نيسابور » و « قرطبة » و « اشبيلية » إلى « القاهرة » و« أسيوط » و« دمشق » و« حمص » و« حلب » .

في هذا اللجب من التباعد عن الأدب ظهرت علومٌ جديدة، وانتشر **علم العمران** وفلسفة التاريخ بظهور « مقدّمة ابن خلدون » . ومن المسلّم به ، والحالة هكذا، أن يعرو الشعرَ تقلّصٌ في أبوابه وفساد في لغته . أمّا أكثر أصحابه فهم من « مصر » و « الشام » .

و« لزيدان » اعتبار في أنّ التاريخ كان الغرض منه أوّل الأمر خدمة التفسير والحديث ، لأنّ العرب رغبوا في تحقيق الأماكن التي نزلت الآيات فيها أو قيلت الأحاديث . وهذا ممّا اضطرّهم بعد ذلك ، في الدين والأدب واللغة والعلم والحياة ، إلى تحقيق هذه المسائل من خلال الإسناد الذي كثيراً ما دقّق فيه الرواةُ الكبار . وبذلك يكون النقد التاريخيّ قد ارتكز على كثير من الإسناد، مع عمل النظر فيه، إلاّ أنّه غالباً ما حاد عن جادّة غايته العلميّة ، ممّا نراه من مجاراة المؤرّخين لولاة الأمر ، ومن تنزيه بعض العلماء عن الخطإ . غير أنّ هذا الرأي مأخوذ بالمغالاة لأنّ كثيراً من المؤرّخين قد كتبوا لمجرّد العلم .

وحسب الطريقة التي سار عليها « زيدان » ، مرجعاً كلّ علم حسب كلّ عصر أو كلّ دور ، دارساً ما طرأ عليه ، فقد رجع إلى الموسوعات والمجامع ، وذكر أكثر أصحابها ، وإلى العلوم الإسلاميّة والفقه الحنفيّ والمالكيّ والشافعيّ والحنبليّ ومَن كتب فيها جميعاً وفي القرآن والشيعة والزيديّة والتصوّف .

وتتكاثف الظلمة على الشعب العربيّ وتاريخه بمجيء **العصر العثمانيّ** الذي ينهي المؤلّف شديدَ ليله إثر دخول حملة « بونابرت » « مصر » . ويذكر كيفيّة فتوح العثمانيّين ، وحال آداب اللغة التي ما زالت لغة الدين في العالم العربيّ، والتي انهارت آدابها فأصبحت في أحطّ أدوارها،

خاصّة الاجتماعيّة ، من جرّاء الفساد الأخلاقيّ والتعسّف السياسيّ .

والذي عرا **اللغة والأدب** امتدّ في **الشعر** عامّة ، فطغى على مُجيديه التقليدُ في المعاني والأساليب والألفاظ، وعُنوا بتنميق العبارات والجناس والتورية والسجع ، حتى خرجوا عن الذوق الأدبيّ المألوف في الشعر العربيّ .

٨ – عصر النهضة .

وكما تهيّأ للعصور السابقة أن تنهض وتتأثّر بمدنيّات الشعوب المتعرّفة إليها ، ثم تصبغ تلك المدنيّات بما لديها من مدنيّة فتخرج إلى التاريخ بحضارة تكون دأباً جديداً للحياة ، هكذا تهيّأ فيها لعصر النهضة أن يستفيق فيه العرب من سبات لهم عميق ، فتتأثّر نهضتهم بمدنيّات تأثّرت بدورها بدأب الحياة الذي وصلت إليه المدنيّة العربيّة في الأدوار العباسيّة . وكما كان للعصر الأمويّ بعض سِمات البداوة ، وللعصر العباسيّ بعض سمات الفارسيّة ، هكذا كان لعصر النهضة سمات المدنيّة الأوروبيّة على اختلاف نهجٍ وحياةٍ ظاهر .

وقبل استفاقة هذه النهضة ، وفي ليل العرب الطويل ، لمعت نجوم عربيّة انتظمت « مصر » و «لبنان » و «سوريا » . إنتظمت « مصر » إثر حملة « بونابرت » ، و« لبنان » و « سوريا » إثر البعثات الدينيّة وانتشار الرهبنات .

أمّا النهضة فكان من أهمّ ما يميّزها عن المدنيّة العربيّة، التي حافظت على روحها رغم تأثّرها بكثير من المدنيّات ، أنّها اتّبعت خطى المدنيّة الحديثة بشكل واضح ، حتى ليصحّ القول ، نسبيّاً،

إنّها عاشت أحياناً هُويّة غيرها .

شرع « زيدان » في جزئه الأخير بذكر مميّزات هذه النهضة وما ساعدها على النهوض . فحصرها **بالمدارس** الحديثة ، **والطباعة** ، **والصحافة** ، وروح **الحريّة الشخصيّة** ، **والجمعيّات** الأدبيّة والعلميّة ، **والمكتبات** العامّة ، **والمتاحف** ، **والتمثيل** ، واشتغال الإفرنج بآداب اللغة العربيّة على يد **المستشرقين**. وقد أسهب ، بأسلوب مكتنز البحث والثقافة ، في ذكر كلّ ميزة على حدة ، فدرس نهضة المدارس في أهمّ مراكز ثقل المدنيّة في الشرق العربيّ ، وشرح معطياتها وطرق أساليبها ، وفاوت بين أقسامها وأسباب نشوئها ونتائجه ، وما أسهمت فيه من مسح غشاء الجهل عن العين العربيّة المستيقظة . وبحث في نشوء الطباعة ، ومراكز وجودها ، وتأديتها إلى انتشار ما يتفرّع منها. وتطرّق إلى الصحافة فأبان تاريخها ، وعدّد أسماءها ومنشئيها ، وكشف عن دورها كلسان وعي جديد يدخل في عوامل النهضة ، ثم بيّن أسباب رجوع الحريّة الشخصيّة التي كان العرب من أكبر الداعين لها ، فآلت بالعرب إلى الإصلاح السياسيّ والاجتماعيّ والدينيّ . وذكر الدور الذي قامت به الجمعيّات العلميّة ، من خطابيّة ، وخيريّة ، وسياسيّة ، وعلميّة ، وفنيّة ، ومن جمعيّات نشر الكتب ، والتمثيل ، والأندية الأدبيّة .

وهكذا كان شأنه مع المكتبات وفضلها العميم في حفظها التراث العربيّ ، وذكر أسماء الكثير منها . وهذا ما يكفيك لإدراك العمل الموسوعيّ الفرد الذي قام به « زيدان » ، ولمعرفتك بما عند العرب من ثقل حضارة ومدنيّة .

أمّا إذا تصفّحت هذا الجزء الأخير ، وقرأت « زيدان » في دراسة

للاستشراق والمستشرقين واشتغالهم في نقل العلوم الطبيعيّة والرياضيّة أوّل أمرهم ، واهتمامهم باللغات الشرقيّة وآدابها بعد ذلك ، فإنّك لا بدّ واقع على صفحات هي من الإفادة بمكان .

ومن ثم يَدخل « زيدان » آداب اللغة العربيّة في النهضة ، فيذكر العلوم الدخيلة ونقلها إلى العربيّة ، كالرياضيّة والحربيّة والطبيّة والفلكيّة ، وكالعلوم الطبيعيّة وما يتفرّع عنها ، مع ذكر محرّري الكثير من كتبها ؛ ويعني « زيدان » بالمحرّر من يحرّر الكتب المنقولة ويهيّئها للطبع ، ويشترط فيه معرفة العلم الذي يُعهد إليه تحريره . والمحرّرون هم أصحاب الفضل الأوّل من حيث وضع المصطلحات . وينتهي « زيدان » ، بعد العلوم الدخيلة ، إلى آداب العربيّة ، فيذكر الأدب **والشعر** الفصيح والعاميّ ، والمنقولات الشعريّة والأدبيّة إلى العربيّة . ثم يعدّد شعراء العصر أو الدور الأوّل ، كالمعلّم « بطرس كرامة » وغيره ؛ وشعراء الدور الثاني ، « كالساعاتي » المصريّ والحاج « عمر الأنسي » ؛ وشعراء الدور الثالث وأدباءه كالشيخ « خليل اليازجي » ، و « إبراهيم الأحدب » الطرابلسيّ ، والشيخ « نجيب الحداد » ، و « محمود باشا سامي البارودي » ؛ وعلماء اللغة في النهضة الأخيرة « كالدسوقي » ، و « محمد أرسلان » ، والشيخين « ناصيف وإبراهيم اليازجي » ، و « أحمد فارس الشدياق » ، وهم أركان عظيمة من أركان النهضة .

أمّا **النثر** فقد صار ذا مميّزات عصريّة في سلاسة عبارته وسهولتها ، والبعد عن الألفاظ العويصة والجمل المسجّعة ، وقِصر العبارة وخلوّها من الحشو والتنميق ، والأخذ بالموضوع ترتيباً منطقيّاً في فقرات متلازمة

متناسقة ، وظهور الإنشاء الصحافيّ على يد « سليم البستاني » و « أديب إسحق » و« سليم بشاره تقلا » .

وينهي «زيدان» كتابه بفصول عن **التاريخ والجغرافيا**، والموسوعات، والقضاء ، والإدارة ، والمنقولات القضائيّة ، والعلوم الاقتصاديّة ، وعلم الاجتماع ، مع ذكر كثير من الكاتبين فيها وكتبهم .

★

هذا كتاب تجـــده في أغلب كتب الأدب عندنا ، منقولاً آناً ، ومنحولاً آناً آخر ، حتى ليصدق القول إنّ أغلب دارسي الأدب العربيّ ، باستثناء قلّة معروفة ، هم مجرّد ناقلين عن « زيدان » لا مؤلّفين . فقد أخذوا بأبوابه ، وأخذوا بتقسيمه للعصور ، وسرقوا آراءه موفّرين على أنفسهم مشقّة العود إلى ما خلّفت العربيّة من آثار وقف « زيدان » عليها وقفة المتبحّر القادر . وإنّ هذا الكتاب ما أردتُ دراسته أخذاً وتعليقاً أو نقداً صرفاً ، أكثر ممّا أردته كشفاً عن قدرة « زيدان » في هذا المضمار وكشفاً عن عجز هؤلاء الذين لا يتكلّفون مشقة الرجوع إلى النبع ، فيكتفون بسرقة الموج عن الضفاف . وعلى هـذا الأساس يكون أغلب دارسي الأدب عيالاً على رائد في التأريخ الأدبيّ مـا يزال كتابه ، بأجزائه الأربعة ، من أهمّ الكتب التي أقامت نفسها على دراسة الأدب دراسة مفعمة بالعمق والتبحّر .

أمّا **الشخصيّة الزيدانيّة** التي تطلّ عليك من خلال صفحات هذا الكتاب ، فهي شخصيّة ترتسم على محيّاها ملامحُ **الغلوّ** ، في غير ما موقف ، في **تفضيل العرب على بقيّة الشعوب أدباً وعلماً** ، وفي ذكر

مجاراتهم أعظم الحضارات التي عرفتها المدنيّة القديمة . وقد يكون هذا الغلوّ مضرّاً من حيث بعده عن الموضوعيّة في دراسة التاريخ الأدبيّ ، وقد يكون مفيداً ، وإلى حدّ ، من حيث الردّ على القائلين بتخلّف العرب ، أو ببناء آدابهم وعلومهم على الاقتباس فحسب .

وللشخصيّة الزيدانيّة مظهر آخر في التاريخ الأدبيّ ، عنيتُ بـــه **قـدرة « زيدان » على تتبّع كلّ علم وكلّ أدب** ، حسب كلّ عصر ، وحسب مـــا طرأ على هذه العلوم والآداب من نموّ وتطوّر وانحطاط . وإذا كان للزيدانيّة مظهر آخر ، فهو لا بدّ أن يكون مظهر **الأديب المدافع عن الحضارة العربيّـــة** ، **ومظهر المنهجيّ العلميّ في ذكر المراجـع** ، **قديمها وحديثها** ، التي استنـــد « زيدان » إليها في كتابة هـــذا السفر النفيس عن الآداب العربيّة ، ومظهر المنهجيّ العلميّ في طريقـــة السرد والتنسيق التي اعتمدهـا المستشرقون في هذا المضمار .

وإذا صحّ القول إنّ كثيرين من مؤرّخي الأدب قد سبقوا «زيدان» إلى التأريخ الأدبيّ ، فالقول يصحّ أيضاً بأنّ « زيدان » **كان الرائـــد الأوّل في وضع التصميم العلميّ العامّ لهذا الفنّ** . وربّما يعـود ذلك لكون « زيدان » قـد ألمّ دون الآخرين بالمناهج الحديثـــة التي كان للمستشرقين فضل وضع أسسها التي تصحّ منهجاً لدراسة التاريخ الأدبيّ . ولعلّ « بروكلمان » هو الذي وضع أسسس دراسة هذا التاريخ حسب العصور ، قبل « زيدان » الذي من المحتمل جدّاً أن يكون قد تأثّر بهذه المنهجيّة ، فدرس العلوم والآداب عصراً إثر عصر .

ولا أعتقدني مخطئاً إذا قلت إنّ « زيدان » قـــد جعل لكلّ علم وأدب عالماً قائماً بذاته ، له صلة وثيقة بغـيره من عناصر التمدّن الأدبيّ

والعلميّ . فأنت إذا قرأت « زيـدان » ، وهو يحدّثك عن أيّ علم أو أيّ أدب، وجدتَه يدرس الأشياء بذكر مَنشئها، وتطوّرها، وأسباب تناقلها ، ويذكر أصحابها ومدى ما أضافوا عليها أو أسقطوا من قيمتها في عهود نهضتهم وانحطاطهم . وليس هـذا بيسير على فرد صرف عمر عينيه في قراءة المخطوطات والمراجع على سبيل إيجـاد المادّة التي تخرج كتابه إلى الناس كاملاً ، أو شبه كامل على الأصحّ .

وعلى هذا الأساس قام «زيدان » إلى التأليف في التـاريخ الأدبيّ ، فكان أن أصاب في كثير ممّا كتب ، وكان أن أفـاد في سبيل أنّ الأدب رسالة في خدمة الكائن البشريّ .

٤ - مـدخل في اللغـة

خصّ « زيدان » اللغـةَ العربيّة بكتابين قيّمين ، أوّلهما كتاب « الفلسفة اللغويّة والألفاظ العربيّة »، وثانيهما «اللغة العربيّة كائن حيّ ». وليس غريباً على من اهتمّ بالتمدّن الإسلاميّ ، وبتاريخ الأدب ، أن يهتمّ بمُعطى أنسانيّ عظيم ، هو اليوم أداة جديدة في محاولة الكشف عن كثير من روافد حضارات الشعوب ، عنيتُ بذلك اللغة .

أخذ « زيدان » بنظريّة في اللغة تحمل كثيراً من البقاء والصحّة ، ومفادُها أنّ اللغة إنّما نشأت من **أصوات الحيوان**، **وظواهر الطبيعة**، **وانفعالات الانسان** . ومن ثمّ اندرجت تحت ارتقاء العقل ، وتطوّر الحياة ، وتشعّبِ مرافقها حسب مبدإ **النشوء والارتقاء** . وقد جهد « زيدان » في درس اللغة العربيّة على ضوء هـذا المبدإ ، فاعتبر أنّ الكلمات المتقاربة في اللفظ والمعنى إنّما هي تشعّبات لفظ كان واحـداً في الأصل ، ساعد على تشعّبه ناموسُ **القلب** ، وهو تقديم أحد حروف اللفظ الواحد أو تأخيرها ، مع إبقاء دلالة معناه قريبـة من أصله ؛ وناموس **الابدال** ، وهو إبدال حرف بحرف آخر قريب المجانسة له في

التلفّظ . كما اعتبر أنّ الحروف التي تدلّ على معنى في غيرهـــا ، هي ألفاظ كانت تدلّ على معنى في نفسها. واعتبر أنّ محاولة تسهيل اللفظة والاختصار في نطقها ، دعت إلى إيجـاد ناموس يسمّى **النحت** ، وهو ظاهرة من ظواهر اللغات كافّة ، وخاصّة اللهجات العاميّة . كما إنّ التنوّع في الدلالات ، والتكاثر في الألفـاظ ، إنّما اقتضته الاشتقاقات وتصاريف الأفعال والأسماء في ارتقاء اللغة من خلال ارتقاء الناطقين بها . ولعلّ هذا هو السبب أيضاً في مزيدات الأسمـاء والأفعال . أمّا أصول الأفعال فتردّ إلى كونها ثنائيّة ، أحاديّة المقطع ، تحاكي أصواتاً طبيعيّة ، قبل أن تكون ثلاثيّة أو رباعيّة. وربّما يكون هذا التنوّع ، وهذه المزيدات ، قد تولّدت من خلال ما يسمّى بالنحت ، أو **الترخيم** الذي يفيد إهمال القسم الأخير من الكلمة .

ويدرس « زيدان » ظاهرة أخرى في اللغـــة العربيّة ، وهي تعني أنّ الألفاظ الدالّة على ما هو **معنويّ** هي في الأصـــل موضوع دلالة على ما هو **حسّي** ، ومن ثمّ حُملت إلى المعنويّ على المجـــاز . ثم يخلص إلى القول بأنّ « لغتنا مؤلّفة أصلاً من أصول قليلة ، أحاديّة المقطع ، معظمها مأخوذ من محاكاة الأصوات الخارجيّة ، وبعضها من الأصوات الطبيعيّة التي ينطق بها الإنسان غريزيّاً. ومن هذه الأصول نشأت ونمت حتى بلغت إلى ما هي عليه الآن بتركّبها وتنوّعها ، بين نحت وقلب واستعارة وإبدال ، سدّاً لاحتياجات الإنسان ، وجرياً على ناموس الارتقاء العامّ » كما يخلص إلى التأكيد على أنّ اللغة **معطى مكتسب اصطلاحيّ** ، هو عرضة **للتغيُّر والتطوّر** ، وليس معطى توقيفيّاً يقضي بإبقاء اللغة على ما هي عليه . ومن ثمّ يعقـد فصولاً على الطريقة الطبيعيّة للتكلّم ، وما يتفرّع عنها من دور تقليديّ ونطقيّ ، ومن

تفاهم بالإشارات والأصوات، وعلى **اختراع الكتابة وتعلُّم العدّ**، **وتاريخ الاقلام واختراعها** .

وهكذا ينهي « زيدان » كتابـه « الفلسفة اللغويّـة » ناشراً بين دفّتيه كثيراً من المعلومات التي قدر على استقرائهـا ، والتي حصّلها من خلال مطالعاته لكثير من كتب اللغـــة عند « ابن جنّي » ، و« السيوطي » ، و « أبي إسحق الاسفرائي » ، وغيرهم ممّن قصروا جزءاً من همّ حياتهم على دراسة اللغة بكلّ ما لها من أصول وفروع .

وإذا كان كتاب « الفلسفة اللغويّـة » يبحث في كيفيّة **نطق** الإنسان ، وكيفيّـــة **نشوء اللغة** وتولّدها حسب رأي « زيدان » ، فإنّ كتاب « اللغة كائن حيّ » يبحث في **تاريخ اللغة** بعد تمام تكوّنها، وما طرأ عليهـــا من تغيّر وتطوّر ، وتجـدّد ودثور ، حسب مبدإ النشوء والارتقاء الذي أخذ به « زيدان » في أغلب ما كتب .

ولعلّ أوّل ما يتبادر إلى الذهن في مطالعاتنا لهذا الكتاب هو رفض « زيدان » لمعتقَدٍ في اللغة يقول **بالجمود** ، وهـــذا يعني عدم مجاراة اللغة لما يصيبه الإنسان من تطوّر ، كما يعني إبقاء الثوب الصغير على نموّ الجسد اللسانيّ الحضاريّ ؛ ورفضُ « زيدان » لمعتقـد الجمود في اللغة يعني **القبول بمعتقد الحركة** ، وعلى هـذا الأساس وجد « زيدان » في اللغة كائناً حيّاً، كثير الانحلال والتوالد، **يسقط** منه ما لا يتوافق وما آل إليه ، **وينمو** فيه مـــا هو بالضرورة تعبير عمّا بات موجوداً في التداول من خلال معطيات هذا الكائن الاجتماعيّ المتطوّر . ولهذا نجد « زيدان » يدرس تاريخ اللغة العربيّة ، باعتبـــار الأدوار التي مرّت عليها من العصر الجاهليّ حتى النهضة الحديثة ؛ فيقسم هـذه الأدوار

ثمانية ، يتناول في أوّلها اللغة العربيّة منذ أقدم أزمانها في الجاهليّة ، وما دخلها من ألفاظ اللغـات الأعجميّة ، مسنداً ذلك إلى كثير من الأسباب التاريخيّـة ؛ ثم ينتقل إلى العصر الإسلاميّ دارساً ما اقتضاه الشرع والفقه والعلوم اللغويّة والنحو من إحداث مجدّدات كثيرة ، وما اقتضته الإدارة من إحداث ألفاظ إداريّة ، والعلم والفلسفة من إحداث ألفاظ علميّة وفلسفيّة .

ثم يعقد فصلاً على الألفاظ العامّة أو الاجتماعيّة التي دخلت اللغة عن طريق العلم والشرع ؛ كما يعقد فصـــلاً آخر على الألفـاظ الدخيلة التي عمّت اللغة العربيّة بعد زوال الحكم العربيّ ، حتى يخلص أخـيراً إلى النهضة الحديثة ، وما اقتضاه تمدُّنها من تولـّد ألفاظ جديدة ، واقتباس الكثير منها عن طريق ما استحدثه الإنسان الحديث في العمل الحديث .

أللغة ، إذاً ، حسب مـا يقول « زيدان » ، كائن يسير « سير الكائنات الحيّة ، بالدثور والتجدّد المعبَّر عنه بالنموّ الحيويّ . فقـد تولـّدت في العصر الإسلاميّ ألفاظ وتراكيب لم تكن في العصر الجاهليّ ، وتولـّدت في العصور التالية ما لم يكن فيما قبلها . وأخيراً تولـّدت في نهضتنا الأخيرة من الألفاظ والتراكيب مـا لم يكن معهوداً من قبل . فالوقوف في سبيل هذا النموّ مخالف للنواميس الطبيعيّـة ، فضلاً عن أنـه لا يجدي نفعاً . **فاللغة كائن حيّ نامٍ** ، خاضع لناموس الارتقاء ، ولا بدّ من توالي الدثور والتولـّد فيها ، أراد أصحابها ذلك أم لم يريدوا . تتولـّد ألفاظ جديدة ، وتندثر ألفاظ قديمة ، على مقتضيات الأحوال ، لحكمة شملت سائر الموجودات » .

ويدعو « زيدان » ، أخيراً ، أصحابَ الأقلام العربيّة أن يخلـّصوا

أقلامهم من سجن البداوة ، ولا يتهيّبوا الأخذ باللفظ المولـّد والمقتبَس ، شرط الرجوع إلى قواعد اللغة العامّة ، خوف وقوع العربيّة بما وقعت به اللغة التركيّة التي لم تحتفظ من أصول مفرداتها إلاّ بالنزر اليسير .

وفضل « زيدان » في دراسة اللغـــة العربيّة فضل اللغويّ المنبّه الذي استوفى حقّ اللغة عليه بالمستوى الذي وصل إليه علم اللغة العامّ في عصره .

٥ - « الهـلال »

لا تقلّ الصحافة قيمةً عن أيّ دافع من دوافــع النهضة العربيّة الحديثة . وهي ، إن أخلصت لرسالتها، وتنزّهت عن الاتـّجار بمصالح الشعب ، وتمتّعت بقسط وافر من عمق الرأي ، والبحث ، والتوعية ، وأصابت من اللغة بأسلوب سلس العبارة ، تكون قــد أدّت دورها الاجتماعيّ كأهمّ منبر وطنيّ ثقافيّ .

وممّا لا شكّ فيه ، وحسب تعبير « رئيف خوري» ، أنّ «الصحافة ذات شأن خطير في تاريخ اللغة والأدب العربيّ. فقد أعانت على تكثير عدد القرّاء ، وقوّت الحاجة إلى كتّاب يكتبون مثابرين ، وأوجبت أسلوباً للكتابة أقرب إلى السهولة والبساطة منه إلى التعقيد والزخرف، وقضت على اللغــة بأن تتّسع لكثير من الموضوعات والمستنبطات الحديثة التي أصبحت لازقة بالحياة اليوم ، وشجّعت بعض الفنون الأدبيّة تشجيعاً خاصّاً ، ولاسيّما فنّ المقــالة السياسيّة والاجتماعيّة والتاريخيّة ، والمقالة في النقد الأدبيّ والعلوم الطبيعيّة ، كما شجّعت فنّ القصّة القصيرة ، والرواية الطويلة ، والترجمة » .

وإذا كان لمجلّة «المقتطف» نصيبُ البحوث العلميّة ، و «للمشرق» نصيبُ البحوث الأثريّة والدينيّة ، و « للجامعة » نصيب البحوث الاجتماعيّة والفلسفيّة ، و « للضياء » نصيبُ البحــوث اللغويّة ، و « للرسالة » المصريّة نصيب الفنون الأدبيّـة ، فإنّ لمجلّة « الهلال » نصيبَ البحوث التاريخيّة ، فضلاً عن اعتنائها بأغلب الفروع الفكريّة الأخرى . وإنـّها لثروة فكريّة ضخمة أن يكون لدى المثقّفــين والمفكّرين العرب هذه الموسوعــة المكتبيّة من المجلاّت التي تشكّل دعامة راسخة في عمارة تراثنا الفكريّ العربيّ .

حرّر « زيدان » « الهلال» مدّة اثنتين وعشرين سنة . وكان قد أنشأها سنة ١٨٩٢ ، وظلّ قائماً على إدارتها وتحريرها حتى وفاته سنة ١٩١٤ . وقد كان لمجلّته « الهلال » هذه نصيبٌ من الانتشار في الشرق والغرب لم تبلغه أيّة مجلّة أخرى . وقــد انفردت عن أكثر المجلاّت العربيّة بأنـّها ما تزال تُنشر حتى اليوم .

إعتبرها الكثيرون مدرسة جوّالة لما كان لمواضيعها من أهميّة عند القارىء العربيّ ، واعتنــاء خاصّ بالمواضيع الملحّة التي تمسّ حاجةَ المجتمعات العربيّة إلى معرفتها ، والوقوف على مجاري حوادثها . وقــد اعتنى « زيدان » كثيراً **بالتأريخ** « لأشهر الحوادث وأعظم الرجال»، وأفرد لهذا الموضوع مطالع أعداد مجلّته . كما اهتمّ كثيراً **بالمقال التاريخيّ** ، و**المراسلات** التاريخيّة . وخصّ قرّاءه بالردّ على كثير من **أسئلة واقتراحات** غالباً ما كانت تاريخيّة . وقد أضاف إلى هذا كلّه كثيراً من **الأخبار العلميّة** ممّا يتّصل بالطبّ والاختراعات وغيرها . وغالباً ما كان ينهي أعداد مجلّته بعنوان « تاريخ الشهر» الذي يتطرّق فيه لأهمّ حدث تاريخيّ يكون قد وقع في الشهر ذاته .

وقد حرّر « زيدان » أغلب صفحات« الهلال » ، وكان شأنه فيها، شأنه في كلّ ما كتب ، **سلسَ العبارة سهل الأسلوب** ، يؤمن بأنّ الكلمة أداة فهم تنتقل من الكاتب إلى القارىء ، يراعى فيها مستوى اللغة الصحيحة ، ومستوى الفهم عند القارىء الذي اجتهد « زيدان » طيلة حياته في أن يكون معلّماً له ، ينتقل به من الجهل إلى المعرفة ، بكلّ نزاهة وإخلاص .

و« زيدان » ، بمجلّته ، يضيف إلى نتاجه الأدبيّ والتاريخيّ والروائيّ الضخم نتاجاً عظيم الفائدة ، لا يتيسّر وجوده إلاّ على يد من كان مثل « زيدان » أديباً أحبّ الشعوب العربيّة ، فاجتهد أن يتسلّم دفّة تعليمها حقبة من الزمن تعدّ من أخطر الحقبات التي تكون فيها الشعوب قد بدأت تنهد إلى متابعة طريقها الحضاريّ الطويل .

ولعلّ أصدق كلمة تقال في « الهلال » تلك التي« ليوسف الخازن » وفيها يقول: « ومباحث الهلال تمتاز بكون معظمها ذا علاقة بالحوادث التي شغلت الأذهان في الشهر الذي صدر الهلال فيه ، وبملاءمتها لحاجة القرّاء في الشرق ؛ فإنّ فيها تفكهة وفائدة ، وكثيراً ما تسدّ النقص العلميّ عند العامّة . فالهلال ، من هذا القبيل، يصدق عليه اسم كتاب مدرسيّ مشهور ، وهو كتابُ مغني المستعلم عن العلم » .

نصٌّ وتحليل

النصّ

« فاتّكأ كلٌّ منهما على سريره ، والسريران متقابلان ، وفي الغرفة شمعات مضيئة على مائدة ، وقد هدأ الليل ، واستولى السكون على صرح الغدير ، لذهاب الناس إلى أماكن نومهم ، إلاّ ما كانوا يسمعونه من صهيل خيول معسكر حاشية « جبلة » عن بعد . فبدأ « جبلة » بالكلام قائلاً : « عهدت إليكِ في مهمّة منذ أيّام ، وكنت أتوقّع قدومك إلينا بخبر إتمامها ، فأبطأت حتى استبطأ « الحارث » جوابي، فجاء يستعجلني فيه ، وقد آنستُ منه تغيّراً لِما كان يتوقّعه من سرعة الإجابة ، وخصوصاً بعد ما سمعه من قدوم هؤلاء العدنانيّين ، فإنّه يرى التعجيل بالزواج قبل وصولهم » .

فأدركت « سعدى » ما جرّته على نفسها من المتاعب بما أكّدت « لهند » من الوعود ، فتردّدت برهة في الجواب .

فابتدرها «جبلة» قائلاً : «ما بالكِ لا تجيبينني ؟.. هل في الأمر ما يدعو للتردّد ؟ »

قالت : « لا أعلم ذلك ، ولكنّني أعلم أنّ هنداً لم ترَ صحّة منذ ذكرتُ لها هذا الأمر » .

فقال : « وماذا كان جوابها ؟ »

قالت : « لا سلباً ولا إيجاباً ».

قال : « إذن هي راضية » .

قالت : « لا يدلّ السكوت على الرضاء في كلّ حال » .

قال وقد بغتَ : «وماذا إذن؟ألعلّكِ فهمت ما يدلّ على الرفض؟»

قالت : « لا أدري . ولعلّي مخطئة في ظنّي » .

فقال وقد استغرب جوابها : « قولي، أفصحي ، فإنّي أرى وراء توقّفك ما يؤدّي إلى خطر جسيم » .

فقالت : « وأيّ خطر تخافه ؟ »

قال : « ألا تعلمين أنّ رفض هذا الأمر يؤدّي إلى نفور بيننا وبين الحارث ؟ »

فقالت وهي تتجاهل مراده : « وأيّ علاقة بين الأمرين ؟ أيكون الزواج قسراً ؟ »

فهبّ من مجلسه ، وقد ازداد استغراباً ، وقال : « أبَلَغ من هند أن ترفض ما اختاره لها والداها ؟ »

قالت : « لا تقل والداها ، بل قل والدها فقط » .

فحملق وقال ، وقد علا صوته : « ألعلّكِ تجارينهـــا على قحتها

يا سعدى ؟ »

فأجابته بصوت منخفض قائلة : « لا ، لم أجارها في شيء، ولكنّي خفت عليها الموت ، فإذا كنتَ ترى أن تجود بهند فريسة لذلك الرجل فزوّجها به » .

قالت ذلك وأطرقت ، وقد شرقت بدموعها .فبهت « جبلة » عند سماع تلك العبارة ، ولبث برهة يحسب نفسه في حلم ، ثم قال : « وماذا تعنين يا سعدى ؟ ألعلّك تتكلّمين عن ثقة ؟ »

قالت : « لم أذكر إلاّ ما تحقّقته بعد جدال طويل ، وإذا كنت لا تصدّق قولي ، فهذه هند ، فادعُها إليك ، وخاطبها وجهاً لوجه ، فقد نفدت حيلتي معها » .

فرجع «جبلة» إلى صوابه، وتذكّر حبّه «لهند» وما يعجب به من شهامتها وتعقّلها ، ولكنّه ظلّ على خوفه من عواقب ذلك الرفض ، فقال لها : « ادعيها إليك لأخاطبها وأسمع اعتراضها » .

فوقفت « سعدى » وهمّت بالخروج إلى غرفة « هند » ، ولكنّها علمت أنّ مجيئها ، و « جبلة » غاضب ، قد ينتهي إلى عاقبة وخيمة ؛ فرأت من الحكمة أن تخفّف من غضبه ، وتهدّىء روعه قبل مجيئها ، فتقدّمت منه والدموع على عينيها، وقالت: «ها إنّي ذاهبة لاستقدامها، ولكنّني أُنبّهك إلى أمر أرجو ألاّ يبرح بالك » .

قال : « وما ذلك ؟ »

قالت : « أنت تعلم شهامة هند ورقة إحساسها، وخصوصاً بعد ما عانته من الضعف على أثر حديثي معها بشأن ثعلبة ، وتعلم أيضاً أنّ

ثعلبة ، كما نعرفه نحن ، ليس كفؤاً لهـــا ، مع ما خبرناه من خسّته وغدره ، ولا تظنّه يحبّهـــا ، بل هو يريد قتلها ؛ فإذا علمتَ ذلك ، فتدبّر الأمر بالحكمة ، وخاطبها بالحسنى ، ولا تطمع في إكراهها لئلاّ تسوقها إلى حتفها ، فتندم حـــين لا ينفعنا الندم . فمن الحكمة أن نأخذها باللين والتسويف ريثما نتغلّب على عواطفها » .

فقال « جبلة » : « لقد نطقت بالصواب، ولكنّني لا أراني قادراً على التخلّص من شرٍّ أتوقّعه بسبب ذلك ، على أنّي لم أفهم سبب رفضها إيّاه وهو ابن عمّها ، ولا أعرف في غسّان من هـو أقرب نسباً منه ولا أليق بمقامها ، فما سبب هذا البغض ؟ »

قالت : « أمّا كرهها له فسببه دناءته وخسّته ، فقـــد عاشرته أعواماً طوالاً ، فلم تجد فيه شيئاً من أنفـــة الرجال وكرم أخلاق بني غسّان ، وطالما حدثتني عنـــه منذ أعوام ، وكثيراً ما كنّا نذكر سيّئاته بحضورها ، فـلا يسعنا بعد ذلك إقناعها بنزاهته وكرم أخلاقه » .

فقال «جبلة» : « لا أنكر عليكِ ذلك يا سعدى، ولكنّك تعلمين ما بيننا وبين ابن عمّنا الحارث من المنافسة المستترة برداء القرابة تحت ظلّ المجاملة . ولا ريب عندي أنّ رفض طلبه يجرّنا إلى الحرب، ونحن في حال تدعو إلى اجتماع الكلمة لما سمعنا من أخبار الحجاز » .

فقالت « سعدى » : «إنّـي أؤيّدك في ما تقول... ولكنّني على ثقة ممّا قلته لك، وأقوله أيضاً ، وهو أنّ إصرارنا على زواجها بثعلبة يؤدّي بنا إلى ما نندم عليه ساعـة لا ينفعنـا الندم ... فهي لا تحبّه ولا ترضاه ، ولا يمكن أن ترضاه ، فهـل يهون علينا ان نخسر هنداً ،

وهي ثمرة حياتنا ومرجع آمالنا ؟ أنضعها بين يدي ذلـــك الجبان الخسيس وهو لا يحبّها ؟ » قالت ذلك والدموع تتناثر من عينيها .

قال : « أراكِ واثقة من عدم حبّه لهـــا ، ولو كان كذلك لم يطلبها » .

قالت :«أنا متحقّقة من ذلك ، ممّا سأقصّه عليك في فرصة أخرى ، أمّا الآن فإنّـي سأدعو هنداً إليك لتسمع كلامها بنفسك ... وألتمس منك أن ترفق بعواطفها ما استطعت ، لأنّ العنف لا يجدينا نفعاً » .

قالت ذلك وخرجت، والمصباح بيدها ، حتى بلغت غرفة «هند» ، فرأت الباب موصداً . وآنست في الغرفة ضوءاً ، فأصاخت بسمعها ، فسمعت بكاء يتخلّله شهيق ،فعلمت أنّ « هنداً » تبكي . فطرقت الباب وناديتها باسمها ، فأبطأت قليلاً ، ثم فتحته ، فأدنت « سعدى » المصباح من وجه « هند » ونظرت إليها، فإذا هي ذابلة الأجفان ،محمرّة العينين ، كاسفة البال ، فانفطر قلبها لذلك المنظر المروع ، فوضعت المصباح على الأرض وهمّت بها،وجعلت تقبّلها ودموعها تتساقط حنوّاً وشفقة ،وهي تقول : « لا تبكي يا ابنتي ، لا تبكي ولا تحزني ، فـلا يكون إلاّ ما يسرّك » .

فقالت «هند» : « كفاني يا أمّاه تعزية ومسايرة، فقد سمعت غضب والدي بأذني » .

قالت « سعدى » : « وما الذي أسمعك كلامه وأنت هنا ؟»

قالت « هند » : « مررت بالباب فسمعته ينتهرك ، وهو مصرّ على قوله ، وما ذلك إلاّ لتعاستي . فإذا كان لا يزال على عزمه فأستودعك الله » . قالت ذلك وعادت إلى البكاء .

فقبّلتها « سعدى » وقالت : « لقد أخطأ ظنّك يا هند ، فإنّ والدك يكاد يسلّم معي برفض ثعلبة ، وهو إنّما ينتظر مخاطبتك في شأنه ليسمع الجواب من فمك، فهيّا بنا إليه فإنّه ينتظرنا في الغرفة » .

وأرادت « سعدى » أن تدخل على زوجها « بهند » وهي باكية لعلّه يرقّ لها » .

(من « فتاة غسّان »)

التحليل

« فتاة غسان» هي **الرواية التاريخيّة الأولى** التي كتبها« زيدان ». وحوادثها تدور على انتشار الدعوة الإسلاميّة ، مغلّفةً بقصّة حبّ بطلاها الأمير « حامد بن النعمان أبي قابوس » ملك المناذرة ، والأميرة « هند بنت جبلة بن الأيهم » أحد ملوك الغساسنة. وقد عرف الأميران أحدهما الآخر ، وتحابّا ، إثر سباق فروسيّ تغلّب فيه الأمير «حامد» على « ثعلبة » ابن الملك « الحارث بن أبي شمّر » ابن عمّ « جبلة » . والمعروف أنّ « جبلة » و « الحارث » ملكان غسّانيّان عاشا في زمن واحد ، وكان أوّلهما ملكاً على « البلقاء » ، وثانيهما ملكاً على « بُصرى » .

ويُقبل يوم يحاول الملكان فيه توحيد قواهما في سبيل الوقوف مع الروم بوجه فتح المسلمين «دمشق». ويطلب « الحارث» يد « هند »بنت «جبلة » لابنه الأمير «ثعلبة»؛ فيدور هذا الحوار بين « جبلة » وزوجه « سعدى» التي تعهّدت لابنتها «هند»أنّها ستزوّجها بالأمير « حامد »،

فتاها الذي تحبّ .

أوّل ما يتبادر إلى الذهن بعد قراءة هذا النصّ هو تلك **الحيرة** التي تصاب فيها العائلات الموسرة في تزويج بناتها بذوي قرباهنّ ، رضين ذلك أم رفضنه .

ولعلّ موقف الأمّهات من ذلك هو أرفق بكثير من موقف الآباء الذين يرون في تزويج بناتهم بمن لا يمتّ إليهم بصلة القربى إضاعةً للثروة ، وطعناً بالنسب .

وهذا ما نراه ظاهراً من خلال حوار الملك « جبلة » مع زوجه « سعدى » . فالملك « جبلة » يرى في زواج « هند » « بثعلبة » أمراً ضروريّاً : فهو أليق الناس بها مقاماً ، وأقربهم نسباً إليها ، كأنّ الحبّ شيء من قماش العروش وأعراق النسب .

غير أنّ « لجبلة » قلباً أوسع من أن ينكمش على تحجّر وتعنّت . وهو مليء بحبّ « هند » وحيدة أبيها ، ونجمة ذلك القصر الضارب في العلوّ قبّةَ ليل حالك بارد .

و«الحارث »؟ واندفاع المسلمين نحو « دمشق » ؟ إنّ أحوج ما يحتاجه « جبلة » اليوم هو وحدة الصفّ ، وشبك يده بيد « الحارث». وكيف السبيل إلى ذلك إن هو رفض طلب « الحارث » ، ووقف دون رغبته في زواج « ثعلبة » ؟ ورغم رداء القرابة الذي يستر التنافس بين « جبلة » و«الحارث » ، فإنّ رفض « جبلة » هذا الزواج سيدفع إلى حرب تشتّت شمل الغسّانيّين في زمن تلحّ الحاجة فيه إلى اجتماع الكلمة ، وتحاصر الجهود ، في وجه أخبار أبناء « الحجاز » الناهضين إلى الفتوح تدفعهم دعوة النبيّ الكريم .

وبهذا يكون أنّ ما من ليل مرّ جارحَ الخطو كهذا الليل على جبين « جبلة » ، فإنّ حبّه « لهند » ، وواجبــه كملك ، وحاجته لرضى « الحارث » ، ولّدت في نفسه صراعاً ملك عليه جفون عينيه ، فما عرفت إغفاءة لها طيلة امتداد هذا السواد في جواء مملكته .

أمّا الأميرة « سعدى » ، زوج « جبلة » ، فهي مدركة مدى حرمان نساء الشرق من الحبّ ، إذ يُفرض الزواج عليهنّ فرضاً ، ويُراعى فيه النسب والمقام والثروة دون الحبّ . ولعلّ معرفتها بمدى ما يجرّه هذا النمط من الزواج الشقيّ على وحيدتها الأميرة « هند » ، خاصّة و « ثعلبة » أمير قلّ نبلُه ، وعصفت فيه غيرةُ الانتقام من الأمير « حامد » ، لعلّ معرفتها هذه هي التي جعلتها تزدري بالمخاطر ، وتقف موقف ابنتها في ما تحبّ .

غير أنّ الأميرة « سعدى » ، كبقيّة النساء ، زوج لا رأي لها إلاّ من خلال رأي « جبلة » زوجها . فقد فرضت التقاليد عليها أن ترى رأيه ، وتستظلّ رداءه ، وتصمت عن كلّ ما لا رغبة له فيه .

والأمومة ؟ بأيّ عذر تواجه فيه « سعدى » نفسها ، إذا تركت ابنتها فريسة هذا « الثعلبة » ؟ أليس شقاء الأمومة ما يكون شقاءُ البنوّة غالباً سببَه ؟ فكيف تسكت « سعدى » عن شقاء « هند » ؟ وكيف لا تأخذ بالتضحية في سبيل ألاّ تكون ابنتها هي الضحيّة ؟ إنّها لمواقف لا خيط يربط بينها ، ولهذا « فسعدى » في صراع بين أن تكون ظلاًّ لرأي زوجها ، وبين أن تكون ظلاًّ لهوى ابنتها ، والظلاّن كلاهما عزيز عليها ، كلاهما يعذّبها .

لا بدّ ، إذاً ، والحال على تناقض ، من أن ترضي الأميرة « سعدى »

هوى زوجها وابنتها في آن . ولكن كيف السبيل إلى ذلك ، والملك « جبلة » ، والأميرة « هند » ، على طرفي نقيض في ما يرغبان ؟

لم تجد « سعدى » مخرجاً لها إلاّ في التفتيش عن نقطة الضعف عند زوجها ، وضعف زوجها كامن في حبّه العميق لابنته . اذاً فلتنبّه عواطفَ « جبلة » ، ولتشعره بمدى الجريمة التي تصنعها يداه إن هو زوّج « هنداً » بـ « ثعلبة » . ولعلّ كون « ثعلبة » شبه رجل ، كتلة صَغار وخسّة ، يساعد على إقناع « جبلة » بأنّ هذا الزواج مجلبــة موت « لهند » لا محالة .

ثم إنّ « هنداً » ، لمعرفتها بسريرة والديها ، ولعلمهــا أنّ أمر والدها لا يُرَدّ ، وأنّ حبّ أمّها لها قــد يضعف أمام احترامها رأيَ زوجها ، نراها ، رغم يأسها ، على عجلة من أمرها في معرفة ما ستكون نتيجة ذلك الحوار الذي راحت تسترق له السمع إثر انتهار « جبلة » زوجَه ، وقد ألحّ به الغضب وأشكل حلّ الأمور عليه .

في هذا الجوّ الذي **غلب فيه الصراع بين المواقف في نفس « جبلة » وزوجه** ، عقد « زيدان » هــذا الفصل في قصّة « فتاة غسان » تحت عنوان « كشف السرّ » .

إستطاع « زيدان » ، بما له من **قدرة على التعمّق في نفوس أبطاله ، وفي مزايا المجتمعات العربيّة في عصر من العصور** ، أن يقدّم لنــا فصلاً ناجحاً ، **سليم الحوار من الاطناب** والركّة ، سليم الشخصيّات من الجهل والخطإ .

مهّد « زيدان » لهذا الفصل بوصف لسكون الليل ، ومن ثم دخل في الحوار بين « جبلة » وزوجه . « جبلة » يسأل والزوج تجيب ، ولا هو يسمع

الجواب صريحاً، ولا هي تفصح عمّا يريد معرفته، وذلك لخوفها من غضبه إن هي أخبرته بموقف « هند » ، أو أطلعته على رأيها من أمر هـذا الزواج الذي استعجله « الحارث » قبل وقوع الحرب بين روم يتّخذون من الغساسنة درعاً لهم واقية ، وعربٍ من « الحجاز » بدأت سيوفهم تتلمّس رأس الروم في « دمشق » .

وكان لا بدّ «لسعدى» من الجواب، وكان لا بدّ «لجبلة» من **الغضب** أوّل الأمر ، شأنه شأن كلّ حاكم يرى في الأمور خروجاً على طاعته . غير أنّ ذلك الغضب ما عتّم أن أصبح **حيرة وصراعاً** . « فسعدى » تستغلّ حبّ « جبلة » « لهند » ، و « جبلة » يحار بين هذا الحبّ وبين طلب «الحارث» وما يجرّه من عواقب إن هو لم يجبه إليه . و«سعدى» تُكبر من إخلاق « هند » ، وتحطّ من أخلاق « ثعلبة » ، لكأنّها عالمة بأنّ زوجها سيطلب رؤيـة ابنته « هنـد » ، فراحت تمهّد لهذا اللقاء بما يذهب غضبه ويقلّل من شقاء « هند » « بثعلبة » .

ثم إنّ للنساء **دهاءً** في مواقف كهذه يقلب في الرأي ويدعـو إلى الإعجاب . ألم تفكّر « سعدى » بأن تدخل بابنتها على « جبلة » وهي باكية ؟ ذلك كلّه لاستثارة الشفقة في نفس « جبلة » ، أو للإمعان في استغلال حنان «جبلة» استغلالاً يؤدّي إلى إرضاء « هند » أوّلاً وأخيراً .

وهكذا ينتهي الفصل بدخول «سعدى» بابنتها وهي باكية ، وبأمل يخامر « سعدى » أنّ «جبلة » سيوافق « هنداً » على مـا ترمي إليه وتريده .

وبعد ، من المحتمل ألاّ يكون « زيدان » قد عنون هـذا الفصل « بكشف السرّ » عن عبث . فقارىء العنوان قد يتبادر إلى ذهنه مثلاً

أنّ الفصل يتضمّن كشف سرّ خطير ، يتعلّق بمصير ملك الغساسنة ، أو اتّفاقه خفية مع العرب المسلمين ضدّ الروم وضدّ ابن عمّه «الحارث» . غير أنّه لا غرابة في عنوان كهذا عند المدرك أمر الزواج ومـا يحمل من أبعاد، كأن يؤدّي، إذا تمّ ، إلى جمع مملكتين، أو حصر الملك بأبناء الملوك ؛ أو أن يؤدّي ، إذا لم يتمّ ، إلى حرب يذهب ضحيّتها رافد من روافد شعب كلّ جريمته أنّ ملكه يريد حفظ العرش لنفسه لا أكثر .

ثم إنّ « زيدان » لا يتكلّف المواقف ، إنّما يرسلهـا على شكل حوار تظهر فيـه النفسُ سليمة التعبير عن مشاعرهـا سلامةَ اللغة ، سلامةَ الحوار . فقد قدر «زيدان» أن يعبّر عمّا يخالج نفوس شخصيّاته من شعور ، **بحوار هو أقرب إلى الاقتضاب منه إلى الاطناب ، وبلغة بعيدة جدّاً عن الصنعة والزخرف، محافظة على بساطة اللغة القصصيّة،** وهادفة إلى إفهام القارىء، أيّ قارىء ، على أساس أنّ هدف «زيدان» هو تعليم الجمهور ، حسب تعبير « مارون عبود » .

مختارات من نتاجه

اللغة العربية الفصحى واللغة العامية

ألقى المستر « وليم ولكوكس » في كلوب « الأزبكيّة » خطبة موضوعها: «لِمَ لا توجد قوّة الاختراع لدى المصريّين الآن؟» وقد أفاض حضرة الخطيب في ذكر الأسباب المانعة لتلك القوّة ، ثم ذكر العلاج ، وعدّد الطرق المؤدّية إلى إيجادها . وليس من غرضنا الخوض في شيء من مآل تلك الخطبة إلاّ فيما يتعلّق باللغة العربيّة .

فقد قال حضرته إنّ من جملة العوامل في فقد قوّة الاختراع عند المصريّين استبقاؤهم اللغة العربيّة الفصحى ؛ وأشار بإغفالها واستبدالها باللغة العاميّة اقتداء بالأمم الأخرى ، وذكر منها بنوع خاصّ الأمّة الانكليزيّة ، وقال إنّها استفادت فائدة كبيرة بإغفال اللغة اللاتينيّة التي كانت لغة الكتابة عندها واستبدالها باللغة الانكليزيّة الحاضرة .

وعندنا أنّ المستر «ولكوكس» لم يصب المرمى في رأيه من هذا القبيل ، لأنّ ما صدق على اللغة الانكليزيّة لا يصدق على لغتنا ، لأسباب كثيرة نذكر منها :

أوّلاً : إنّ الانكليز ، باستبدالهم اللغة اللاتينيّة باللغة الانكليزيّة ،

قد استبدلوا لغة أجنبيّة بلغة وطنيّة ، وليس كذلك الحال في اللغة العربيّة ، فإنّ الفرق بين لغة الكتابة ولغة التكلّم عندنا ليس بالشيء الكبير ، وقد لا يكون أكثر من الفرق بين لغة الكتّاب الانكليز ولغة عامّتهم الذين لا يعرفون القراءة .

ثانياً : إنّ استبدال اللغة العربيّة الفصحى باللغة العاميّة ، إذا أنقذنا من شرّ ، فإنّه يوقعنا في شرّ أعظم منه ، لأنّ الناطقين بالعربيّة تختلف لغتهم العاميّة باختلاف الأصقاع . والفرق بين لغة « مصر » و«الشام » ليس بأقلّ من الفرق بين اللغة الفصحى واللغة العاميّة ، وكذلك بين لغة أحد هذين القطرين ولغة بلاد «المغرب» ، أو «الحجاز» ، أو غيرها من البلاد العربيّة . ولا يخفى ما بين هذه الأقطار العربيّة من العلائق الأدبيّة والمدنيّة والسياسيّة . فباستبدالها اللغة الفصحى باللغة العاميّة المصريّة مثلاً نحرم أبناء « الشام » وبلاد «المغرب » من فائدة ما نكتبه في تلك اللغة ، وهكذا لو استبدلناه باللغة العاميّة الشاميّة أو المغربيّة أو الحجازيّة . وإذا لم نخسر بهذا إلاّ الجامعة العربيّة لكفى بها خسارة .

ثالثاً : إنّ اللغة ، في كلّ أين وآن ، تتبع حالة عقول الناطقين بها ارتقاءً وانحطاطاً ، فلغة العامّة منحطّة بنسبة انحطاط أفكار الناطقين بها ، وليس لها أن تقوم مقام اللغة الفصحى ، ولاسيّما العربيّة ، لأنّها أرقى لغات العالم ، وفيها من أساليب التعبير ما تعجز لغة العامّة عن القيام بمثله . فإذا أردنا تدوين العلوم على أنواعها باللغة العاميّة كما ارتأى حضرة الخطيب ، فإنّها لا تقوم بتأدية المعاني الكتابيّة كما يجب . ومن أين نأتي بالألفاظ التي نعبّر بها عن الاصطلاحات العلميّة ولا سيّما الحديثة منها ، وقد كادت تعجز اللغة الفصحى عن القيام بها ؟ فإذا قال إنّنا ندخل إليها تلك الاصطلاحات ، نقول إنّ الاصطلاحات المشار إليها

ليست بالشيء القليل، وإنّما هي قسم عظيم من اللغة، ولاسيّما لغة العلم، فإنّ معظمها اصطلاحات علميّة . وتعليم العامّة ألفاظَ اللغة الفصحى كما هي أسهل من تعليمهم الاصطلاحات العلميّة وإدخالها إلى لغتهم ، وهذا شأن اللغة في سائر أنحاء العالم . والمستر « ولكوكس » يعلم أنّ الكتب العلميّة العالية المكتوبة بالانكليزيّة الآن لا يستطيع عامّة الانكليز فهمها مهما بولغ في إيضاحها وبسطها ، وذلك دليل على أنّ بين العامّة والخاصّة حجاباً لو حاولنا حسره عادت الطبيعة فسدلته.

رابعاً : إنّ الجامعة العربيّة قائمة بالمحافظة على اللغة الفصحى . إذ لولا القرآن الشريف والمحافظة عليه منذ صدر الإسلام ، وعودُنا إليه في إصلاح ما تفسده الطبيعة من لغتنا ، لتشتّت شمل الشعب العربيّ ، وأصبح كلّ قطر من الأقطار العربيّة مستقلاً عن الآخر لا يفهم لغته كتابة ولا تكلّماً، كما حصل في الأمم التي كانت تتكلّم اللغة اللاتينيّة، فقد أصبح لكلّ منها لغة مستقلّة لا تفهمها الأمّة الأخرى، مثال ذلك « فرنسا » و«ايطاليا » و«اسبانيا » وغيرها . والفضل الأكبر في حفظ الجامعة العربيّة إلى الآن للقرآن الشريف والمحافظة عليه .

خامساً : إنّ إغفال اللغة الفصحى يستوجب إغفال كلّ ما كُتب فيها من العلوم على أنواعها منذ ألف وثلثمائة سنة، وهي خسارة لا تعوّض مهما قيل في فائدة اللغة العاميّة في الكتابة .

فيتّضح ممّا تقدّم أنّ استبدال اللغة العربيّة الفصحى باللغة العاميّة رأيٌ إغفالُه أولى بنا ، ليس فقط لكونه عقيماً ، بل لأنّه مضرّ باللغة والناطقين بها علميّاً ودينيّاً وأدبيّاً .

على أنّنا لا يليق بنا ختام الكلام في هذا الباب قبل الإشارة إلى ما

طالما شكونا منه من توخّي بعض الكتّاب اختيار الألفاظ المستهجَنة المهجورة ، إمّا إظهاراً لبراعتهم في حفظ مفردات اللغة ، وإمّا إحياء لألفاظٍ طوتها يدُ الأيّام لما اقتضته حالة الحضارة وتنوّع احتياجات الناس . فإذا قال المستر « ولكوكس » إنّه إنّما أراد إغفال مثل هذه اللغة فإنّنا نوافقه ونؤيّد قوله ، لأنّ استعمال الألفاظ المستهجنة يحول دون الغاية المقصودة من تلك الكتابة ، ولا سيّما في الموضوعات العموميّة كالكتب التاريخيّة والقصص الأدبيّة. أمّا في الموضوعات العلميّة العالية فإنّ الضرورة تبيح لهم استخدام الألفاظ الوضعيّة لما وضعت له بغير تساهل ، وعلى الخصوص لأنّ تلك الموضوعات إنّما يقرأها أفراد من خاصّة الناس وهم مكلّفون بمعرفة أوضاعها واصطلاحاتها .

وأمّا في القصص والروايات والتواريخ وسائر الموضوعات الأدبيّة العموميّة فالكاتب مكلّف بانتقاء الألفاظ التي تفهمها العامّة ، مع مراعاة جانب اللغة والإعراب . فإذا عرض للكاتب معنى له لفظان الواحدُ مهجور والآخر مألوف، فإنّه مطالَب بإغفال المهجور واستعمال المألوف . وتلك قاعدة من قواعد الإنشاء الصحيح لا تخفى على حضرات الكتّاب . فبدلاً من أن نقول : « وجلس سجاح وجهه » ، نقول : « وجلس تجاه وجهه »، لمطابقة سجاح وتجاه للمعنى المقصود زِنةً ومعنى. وعندنا أنّ المجاوزة إلى ما وراء ذلك ، واستخدام كلمتين أو ثلاث مألوفة تؤدّي معنى مراداً ، أفضل من استخدام كلمة واحدة مهجورة تؤدّي ذلك المعنى ، وإن خالفنا في ذلك على نوعٍ ما قاعدة من قواعد البلاغة ، لأنّنا نتمكّن من الجهة الثانية من إفهام المطالع، إذا كان عاميّاً أو غير عاميّ، ما أردنا إفهامه ، بدلاً من أن نحمله على الملل من القراءة

والتقاعس عن المطالعة ، ونحن نودّ مواظبته عليها لتحصل الفائـــدة المقصودة من كتابتنـــا . ويجب علينـــا فهم المقصود بالذات من كتابة الكتب الأدبيّة للعامّـة ، فإنّنا إنّما نريد بها اكتسابهم المبـــادىء الأدبيّة أو التاريخيّة لا تعليمهم ألفاظ اللغة وقواعدها لأنّهم في غنى عن ذلك ، لاشتغال كلّ منهم بعمل يقيم بـــه أود حياته ، ولا حاجة به إلى دخائل اللغة . أمّا من أراد منهم درس قواعد اللغـــة ومفرداتها فهناك كتب خاصّة بذلك ، فليعتمد عليها .

وخلاصة القول أنّ الموضوعات العلميّة العالية لا غنى لكاتب فيها عن الارتكان إلى ما وُضع لكلّ علم من الأوضاع والاصطلاحات . ولا مندوحة له عن استعمالها فهمَها العاميُّ أو لم يفهمها ، على أنّ العاميّ في غنى تامّ عن هذه البحوث لبعدها عن مداركه واحتياجاته .

أمّا البحوث التاريخيّة والأدبيّة العامّـة ، وما جرى مجراها ، فالكاتب فيها مطالَب بتجنُّب كلّ ما يحول دون فهمها لدى الخاصّ والعامّ . فيجب أن تكون عبارته فيها بسيطة واضحة سلسة خالية من كلّ تعقيد ، حتى تكون المعاني جليّة للمطالع كلّ الجلاء ، لا يحتاج في فهمها إلى التوقُّف لحظة أو مراجعة معجمات اللغة ، وإلاّ فإنّ عجز الكاتب عن ذلك يعدّ نقصاً في واجبات صناعته .

ونحن في موقف نلتمس فيه لحضرة المستر « ولكوكس » عذراً فيما ارتآه ، لأنّه ،على ما نظنّ ، إنّما حكم بأفضليّة استبدال اللغة الفصحى باللغة العاميّة لما رأى في بعض الكتب من التعقيد في مثل ما تقدّمت الإشارة إليه .

على أنّنا لو سرنا في كتابتنا على الخطّة التي أشرنا إليها بحيث نجعلها

بسيطة واضحة ، مع مراعاة جانب اللغة والإعراب، ما تركنا لحضرته أو لسواه باباً للاعتراض ، أو وجهاً لإبداء مثل ذلك الرأي .

(عن الهلال ، سنة ١ ، صفحة ١٧٦)

سياسة معاوية

وممّا احتاج إليه بنو « أميّه » في سبيل التغلّب لنيـــل الخلافة ، اصطناع الرجال واجتذاب الأحزاب، كما فعل « معاوية بن أبي سفيان » في اكتساب نصرة « عمرو بن العاص » و «زياد ابن أبيه » و « المغيرة بن شعبة » ، اكتسبهم بالدهاء والعطاء ، ثم صار بعد ذلك قاعدة سار عليها بنو « أميّة » في تثبيت دعائم ملكهم ، والعلويّون أبنـاء بنت النبيّ وأحفادها ينازعونهم عليه . على أنّه لم يقم في بني « أميّة » رجل مثل « معاوية » في الدهاء والتعقّل ، ممّا يعبّر عنه أهـــل هذا الزمان. وإذا قسنا أعمال هذا الرجل بأعمال أعاظم رجال السياسة من أهل هذا العصر وغيره ، لرأيناه يفوق أكثرهم تعقّلاً وحكمة ودهاء ، وخصوصاً إذا اعتبرنا موقفه بإزاء طلاّب الخلافة من أهل بيت النبيّ (صلعم) وأبناء عمّه وأبناء بنته ،والمسلمون يعتقدون حقّهم فيها ،وأنّ «معاوية» طليق لا تحلّ له الخلافة ، وأنّه لم يعتنق الإسلام إلاّ مكرهاً، ومع هذا غلب عليهم جميعاً فقبض على أزمّة الملك وجعله إرثاً في نسله، ولم يسفك في سبيل ذلك دماً كثيراً ، وإنّما كانت عمدته سعة الصدر ، والدهاء ، وبذل الأموال .

أمّا سعة الصدر فإنّه كان يغضي عن مطاعن أهل البيت عليه، ولو

فعلوا ذلك بين يديه ، وبدلاً من أن ينتقم منهم كان يبذل لهم الأموال ويقرّبهم . فربّما دخل عليه الرجل منهم وهو في مجلسه وبين أمرائه ، فيطعن فيه ويعرّض باختلاسه الملك ويفضّل « عليّاً » عليه ، فيُلين له الجواب ، ويهبه الأموال ، فينقلب معه ولو كان من أقرباء « عليّ » . ذكروا أنّ « عقيلاً » ، أخا «علي بن أبي طالب» ، وفد على « معاوية » و«عليّ» لا يزال حيّاً ؛ فرحّب به «معاوية» وسرّ بوروده لاختياره إيّاه على أخيه ، وأوسعه حلماً واحتمالاً ، فقال له « معاوية » : «كيف تركت علّيّاً ؟ » فقال « تركته على ما يحبّ الله ورسوله ، وألفيتك على ما يكره الله ورسوله » . فقال « معاوية » : « لولا أنّك زائر منتجع جنابنا لرددت عليك جواباً تألم منه » . ثم أحبّ « معاوية » أن يقطع الحديث مخافة أن يأتي بشيء يسوءه ، فوثب من مجلسه وأمر له أن ينزل ، وأوصل إليه مالاً عظيماً . فلمّا كان من غد جلس « معاوية » وبعث إلى « عقيل » وقال له : «كيف تركت علّيّاً أخاك ؟ » قال : « تركته خيراً لنفسه منك ، وأنت خير لي منه » .

وقد يأتيه الرجل مستجدياً وهو يتعمّد خداعه ، فينخدع له ويطاوعه ويجيزه . ذكروا أنّ « ابن الزبير » — قبل قيامه بالدعوة لنفسه — هرب من « عبد الرحمن ابن أمّ الحكم » إلى « معاوية » ، وقد أحرق « عبد الرحمن» داره « بالكوفة » ، فجاء « معاوية » متظلّماً وقال له : «إنّ عبد الرحمن أحرق داري» ، فقال « معاوية » : «وكم تساوي دارك ؟ » قال : « ١٠٠،٠٠٠ » ، فطلب منه شاهداً ، فأتاه بشاهد من أصدقائه ، فأمر له « معاوية » بالمال . فلمّا انصرف الرجلان قال «معاوية» لجلسائه : « أيّ الشيخين عندكم أكذب؟ والله إنّي لأعرف داره ، وما هي إلاّ خصائص قصب ، لكنّهم يقولون فنسمع ،

ويخادعوننا فننخدع ». وكان ذلك وأمثاله ممّا أسكت « ابن الزبير» وغيره عن القيام لطلب الخلافة في أيّامه .

وكان «معاوية» يحتمل الطعن والنقد ، على الخصوص من رؤساء القبائل وأهل البيوتات وزعماء الأحزاب ، ولو أطلقوا ألسنتهم عليه ، «فالأحنف ابن قيس التميميّ » ، أحد السادة التابعين وأهل النفوذ ، كان على رأي « عليّ » وقد نصره في واقعة «صفّين» . فاتّفق أنّه وفد على «معاوية» بعد أن استقرّ له الأمر بالخلافة ، فلمّا دخل عليه قال له « معاوية » : « والله يا أحنف ما أذكر يوم صفين إلاّ كانت حزازة في قلبي إلى يوم القيامة » ، فقال له الأحنف : « والله يا معاوية إنّ القلوب التي أبغضناك بها لفي صدورنا ، وإنّ السيوف التي قاتلناك بها لفي أغمادها ، وإن تَدْنُ من الحرب فتراً ندنُ منها شبراً ، وإن تمشِ إليها نهرول لها » ، ثم قام وخرج ولم يكلّمه « معاوية » . وكانت أخت «معاوية» من وراء حجاب تسمع كلامه ، فقالت : « يا أمير المؤمنين ، من هذا الذي يهدّد ويتوعّد؟» قال : « هذا الذي إذا غضب غضب لغضبه مائة ألف من تميم ، لا يدرون فيم غضب » .

على أنّ « معاوية » كان ، إذا خاف عدوّاً لا يقدر عليه بالسيف ، ولا يستطيع اصطناعه بالمال ، احتال على قتله غيلةً بالسمّ ، كما فعل «بعبد الرحمن بن خالد بن الوليد » ، وكان قد عظم شأنه عند أهل « الشام » ومالوا إليه بما عندهم من آثار أبيه ، ولغَنائه في بلاد الروم وشدّة بأسه ، فخافه « معاوية » ، فأمر «ابن الاثال » الطبيب أن يحتال في قتله ، وضمن له أن يضع عنه خراجه ما عاش ، وأن يوليه خراج « حمص » . فدسّ « ابن الاثال » إليه شربةَ عسل مسمومة مع بعض مماليكه ، فشربها

ومات ، ونجا « معاوية » منه . وفعل نحو ذلك «بالأشتر النخعي مالك ابن الحارث »، وكان من أشدّ رجال « علي » بطشاً ، أو هو أشدهم جميعاً ، وقد أبلى معه في « صفين » بلاء حسناً . فلمّا اضطربت أحوال « مصر » بدسائس « معاوية » وكانت لا تزال في حوزة « علي » بعث « الأشتر » والياً عليها ، فعلم « معاوية » أنّه إن وليها امتنعت عليه، فبعث إلى المقدّم على أهل الخراج في « القلزم » — وهي في طريق « الأشتر » لا بدّ من مروره بها عند قدومه إلى « مصر » — وقال له : « إنّ الأشتر قد ولي مصر ، فإن كفيتَنِيه لم آخذ منك خراجاً ما بقيتُ وبقيتَ » . فخرج حتى أتى « القلزم » وأقام به ، فلمّا جاء « الأشتر » استبقاه ذلك الرجل فعرض عليه النزول فنزل عنده فأتاه بطعام ، فلمّا أكل أتاه بشربة من عسل قد جعل فيه سمّاً فسقاه إيّاها ، فلمّا شربها مات . وأخذ «معاوية» يقول لأهل «الشام»: «إنّ عليّاً قد وجّه الأشتر إلى مصر فادعوا الله عليه»، فكانوا يدعون عليه كلّ يوم ، وأقبل الذي سقاه إلى « معاوية » فأخبره بهلك «الأشتر»، فقام « معاوية » خطيباً وقال : « أمّا بعد فإنّه كان لعليّ يمينان فقطعت إحداهما بصفين (يعني عمار بن ياسر) وقطعت الأخرى اليوم (يعني الأشتر)». فلمّا بلغ خبر « الأشتر » إلى «عمرو بن العاص» قال: « إنّ لله جنوداً من العسل » .

(من كتاب « تاريخ التمدّن الإسلاميّ »)

الشعر في العصر الأمويّ

لم يكن للشعر العربيّ تأثير في النفوس ومنزلة في الدولة في عصر من عصور العرب مثل ما كان له في العصر الأمويّ . ولا بأس من ذكر الأسباب التي بعثت على ازدهار الشعر في هذا العصر ومنزلته في الدولة وتأثيره في النفوس بإيجاز ...

أسباب رواجه

١ — **انقسام القبائل بالعصبيّة** : إقتضت سياسة بني«أميّة»استعداء القبائل بعضها على بعض بالرجوع إلى عصبيّة الجاهليّة . وأوّل من فعل ذلك «معاوية» في الخلاف بينه وبين«علي»وأبنائه .ثم كان انقسام القبائل عند انتقال الخلافة من آل « معاوية » إلى آل « مروان » ، وكلاهما من بني « أميّة » ، ونشبت الحرب في« مرج راهط ». وأخيراً قام طلاّب الخلافة من غير العلويّين في زمن «يزيد بن معاوية» و«عبدالملك بن مروان»، وهم « الحسين بن علي » ، و « آل الزبير » ، والأزارقة ، و « سعيد بن الأشدق » ، وغيرهم ...ولكلّ خارج قبيلة أو بضع قبائل تنصره ، والأمويّون يستعينون بالشعراء على اختلاف قبائلهم وبطونهم ... يتألّفونهم بالعطاء لعلمهم بما لقول الشاعر من التأثير في نفوس عشيرته لأنّه لسان حالها . فازداد الشعراء بذلك نفوذاً وتقرّباً من الخلفاء أو الأمراء . وكان الخليفة يعدّ مدحَ الشاعر له دليلاً على رضى قبيلته عن سياسته لأنّه لسان حالها ، والقبيلة تعدّ إكرام الخليفة لشاعرها إكراماً لها .

٢ — **سخاء بني « أميّة » بالاموال** : واقتضت سياستهم تألّف

الشعراء بالمال ، فضلاً عن اضطرار الشعراء وغيرهم إلى استرضائهم خوفاً من قطع العطاء عنهم. والعطاء يومئذٍ رواتب الجند وسائر المسلمين. وكان المسلمون في صدر الإسلام كلّهم جنداً ، ولكلٍّ منهم راتب يتناوله من بيت المال على شروط مذكورة في الديوان . فمن قبض على بيت المال قبض على رقاب الرعيّة ، ويجدر بهم أن يتقرّبوا منه ويتزلّفوا إليه . فإذا كان القابض عليه حكيماً يعرف كيف يعطي ولمن يعطي ، أغناه ذلك عن سائر الأسباب ، فيزيد العطاء أو ينقصه أو يقطعه على حسب الاقتضاء .

كذلك كان يفعل الدُّهاة من بني « أميّة » ، وقدوتُهم « معاوية بن أبي سفيان » أكثر دهاة العرب . فقد جعل تصرّفه في العطاء وسيلة لاكتساب قلوب المسلمين، حتى أشياع العلويّين وغيرهم من أبناء الصَّحابة الذين كان يخاف قيامهم للمطالبة بالملك . فأحرِ به أن يفعل ذلك بالشعراء ، ولهم رواتب في بيت المال مثل سائر المسلمين ، فلم يكن الشعراء يرون بدّاً من استرضاء بني « أميّة » خوفاً من قطع أعطيتهم ، فضلاً عمّا يرجونه من الجوائز إذا أحسنوا إرضاءهم .

٣ – رغبة بني « أميّة » في الشعر : كان لبني « أميّة » رغبة شديدة في إحياء لسان العرب وآدابه ... وكان الخلفاء أنفسهم من أهل الأدب، نفوسهم شاعريّة حسّاسة . حدّث « معاوية » عن نفسه ، قال : « إجعلوا الشعر أكبر همّكم وأكثر دأبكم ، فلقد رأيتُني ليلة الهرير بصفّين وقد أتيت بفرس أغرّ محجل بعيد البطن من الأرض ، وأنا أريد الهرب لشدّة البلوى ، فما حملني على الإقامة إلاّ أبيات عمرو بن الاطنابة :

أبتْ لي همّتي وأبى بلائي ... وأخْذي الحمدَ بالثمن الرّبيحِ

وإقحامي على المكروه نفسي ... وضربي هامةَ البطل المشيحِ (١)
وقولي كلّما جشأتْ وجاشت ... مكانَكِ تُحمَدي أو تَستريحي (٢)
لأدفعَ عن مآثر صالحاتٍ ... وأحمي بعدُ عن عِرَضٍ صحيحِ

و « يزيد بن عبد الملك » ردّ « الأحوص » الشاعر من منفاه ببيت شعر له غنّته فيه « جميلة » المغنّية ، وهي قوله :

كريمُ قريشٍ حين يُنسَبُ والذي ... أقرّتْ له بالملك كَهْلاً وأمْردا

فطرب «يزيد» وقال : « ويحك ! مَن كريم قريش هذا؟ » قالت : « أنت ، وقد قاله الأحوص ، وهو منفيّ » . فكتب بردّه ، وأنفذ له حللاً سنيّة ، وأدناه وقرّبه . وقال له يوماً : « لو لم تمتّ إلينا بحقّ ولا صهر ولا رحم إلاّ بقولك :

وإنّي لأستحييكمُ إذ يقودني ... إلى غيركم من سائر الناس مطمعُ

لكفاك ذلك عندنا » .

وقد راسل « عبد الملك بن مروان » عدوّه « ابن الزبير » بالشعر، وأجابه ذاك بمثله . وكان عمّال الأمويّين أصحاب شعر وخيال وحسّ مثلهم .

وكان بنو «أميّة» يحفظون الشعر ويباحثون الشعراء وينتقدونهم ، وكثيراً ما كانوا يجمعون طائفة منهم في مجلس ويقترحون عليهم أن يصفوا شيئاً ، ويجيزون المُجيد ، كما فعل « سليمان بن عبد الملك » ، إذ

(١) ألمشيح : الجادّ في الأمر . (٢) كلّما جشأت وجاشت : أي كلّما اضطربت نفسي من خوف أو جزع .

جمع إليه «الفرزدق» و« جريراً»و« كثيّراً» و« ابن الرقاع»، وقال لهم: « أنشدونا من فخركم شيئاً حسناً ... » ففعلوا في حديث طويل. وقد يخطر لأحدهم شعر لا يُعرف قائله ، أو يحتاج إلى تفسير ، فيكتب إلى الشاعر أو الراوية فيستقدمه من « العراق » إلى « الشام » على البريد ، كما فعل « هشام » المذكور ... إذ بعث برسالة عاجلة من « دمشق » إلى عامله « بالبصرة » أن يُشخص إليه « حمّاداً»الراوية على البريد ، فقضى « حماد » اثنتي عشرة ليلة في الطريق وهو خائف من تلك الدعوة العاجلة ، فإذا هو يقول له: « بعثت إليك لبيت خطر ببالي لم أدرِ مَن قائله ». فهدأ روعه وقال : « وما هو ؟ » فقال :

فدَعوا بالصَّبوحِ يوماً فجاءتْ قينةٌ في يمينها إبريقُ

فقال حمّاد :« هذا يقوله عديّ بن زيد من قصيدة»،وأنشده إيّاها.

وكذلك كان يفعل عمّالهم ، إذا علموا بوجود شاعر أو أديب بارع بعثوا في استقدامه ، ممّا يطول بنا ذكره .

وكان من الخلفاء شعراء ، « كالوليد بن يزيد » ، فقد كان شاعراً بليغاً...وينسبون إلى« يزيد بن معاوية » القصيدة المشهورة التي مطلعها:

نالتْ على يدها ما لم تنله يدي نَقْشاً على مِعْصمٍ أوهتْ به جَلَدي

وربّما كانت لغيره ، لكنّه كان من أصحاب الشاعريّة .

وكان لبعض خلفائهم الدهاة شغفٌ بالأدب على الإجمال ، ونخصّ منهم ثلاثةً : « معاوية » ، و«عبد الملك »، و«هشاماً » .حكم كلّ منهم أكثر من عشرين سنة ، وكان لهم عناية بالأدباء، وخصوصاً«عبدالملك». والأدب لا ينمو ويورق ويثمر إلاّ في ظلّ محبّيه من الملوك أو الأمراء، وإذا تدبّرتَ النهضات التي مرّ بها الأدب في أثناء التمدّن الإسلاميّ

رأيتَ لكلّ نهضة أميراً أو ملكاً أخذ بناصرها ، وأحيا الأدب بتقديم أهله أو تنشيطهم .

فلا عجب إذا كان أكثر أحاديث الناس في مجتمعاتهم ومنتدياتهم في الشعر ، ومن هو أشعر شعراء الجاهليّة أو الإسلام . وكان الرائج من شعراء الجاهليّة في عصرهم « امرأ القيس » و« زهيراً » و « النابغة » ، يفضّلونهم على سواهم ، ويفضّلون « جريراً » و«الفرزدق» و« الأخطل» على سائر الشعراء المسلمين في أيّامهم . لكنّهم كانوا يتناقشون في أيّ هؤلاء أشعر ، وكثيراً ما كانوا يتخاصمون وترتفع أصواتهم ، وربّما اهتمّ الخليفة أو الأمير فبعث إلى بعض العلماء يسألهعن رأيه في أشعر الشعراء، كما فعل « الحجّاج » ، إذ بعث إلى « ابن قتيبة » يسأله عن ذلك . وقد يبعثون من « الشام » إلى « العراق » لمثل هذا السؤال .

٤ — الحركة الأدبيّة في «البصرة » و«الكوفة» : قد علمتَ ما كان من حال هذين البلدين في العصر الأمويّ ، وفيهما احتكّ العرب بغيرهم من الأمم المتمدّنة ،وفيهما اشتغل المسلمون بجمع أخبار العرب وأشعارهم وأمثالهم ، وفيهما وُلد النحو وغيره من الآداب اللسانيّة ، فتكاثرت الأندية الأدبيّة هناك ، ولاسيّما « المربد » ، « عكاظ » الإسلام ؛فكان ذلك من جملة البواعث على ازدهار الشعر في العصر الأمويّ .

(من كتاب « تاريخ آداب اللغة العربيّة »)

كلمة الى الكتّاب

يتبيّن للقارىء ، ممّا ذكرناه عن أحوال اللغة العربيّة فيما توالى عليها من العصور والأدوار في أثناء نموّها وارتقائها من زمن الجاهليّة إلى هذا اليوم ، أنّها سارت في كلّ ذلك سيرَ الكائنات الحيّة بالدثور والتجدّد المعبَّر عنه بالنموّ الحيويّ . فقد تولّدت في العصر الإسلاميّ ألفاظٌ وتراكيب لم تكن في العصر الجاهليّ ، وتولّدت في العصور التالية ما لم يكن فيما قبلها. وأخيراً تولّدت في نهضتنا الأخيرة من الألفاظ والتراكيب ما لم يكن معهوداً من قبل . فالوقوف في سبيل هذا النموّ مخالف للنواميس الطبيعيّة ، فضلاً عن أنّه لا يجدي نفعاً . فاللغة كائن حيّ نامٍ خاضع لناموس الارتقاء ، ولا بدّ من توالي الدثور والتولّد فيها ، أراد أصحابها ذلك أو لم يريدوا . تتولّد ألفاظ جديدة ، وتندثر ألفاظ قديمة ، على مقتضيات الأحوال ، لحكمةٍ شملت سائر الموجودات .

وقد آن لنا أن نخلّص أقلامنا من قيود الجاهليّة ، ونخرجها من سجن البداوة ، وإلاّ فلا نستطيع البقاء في هذا الوسط الجديد . فلا ينبغي لنا احتقار كلّ لفظ لم ينطق به أهل البادية منذ بضعة عشر قرناً ، لأنّ لغة البراري والخيام لا تصلح للمدن والقصور ، إلاّ إذا ألبسناها لباس المدن . فلا بأس من استعمال الألفاظ المولّدة التي لا يقوم مقامَها لفظٌ جاهليّ ، لأنّ معناها لم يكن معروفاً في الجاهليّة ، أو التي كان لها لفظٌ وُترك فأصبح غريباً مهجوراً . فاستعمال اللفظ المولّد خير من إحياء اللفظ الميت القديم . وإذا عرض لنا تعبير أجنبيّ لم تستعمل العرب ما

يقوم مقامه لا بأس من اقتباسه . وفي اعتقادنا أنّ إطلاق سراح الأقلام على هذه الصورة يكشف لنا عن جماعة كبيرة من أرباب القرائح ، يقعدهم عن الاشتغال بالأدب خوفُهم من الوقوع في خطإ لغويّ أو بيانيّ يؤاخذون عليه ، وليست فيهم شجاعة أدبيّة تحملهم على عدم المبالاة بالنقد ، إذا كان فيما يكتبونه فائدة . والخطأ اللغويّ لا يُقلّل شيئاً من قدر الكاتب ، لأنّ الإحاطة بكلّ أوضاع اللغة وقواعدها وشواردها لا يتأتّى إلاّ لقليلين .

على أنّنا لا نقول في هذا الإطلاق نحو ما يقوله الإفرنج في لغاتهم ، لأنّ شأننا في لغتنا غير شؤونهم في لغاتهم . فلا بدّ لنا ، مع هذا الإطلاق ، من الرجوع إلى القواعد العامّة والروابط الأساسيّة ، فلا نفسد اللغة بألفاظ العامّة وتراكيبهم ، ولا نكثر من الدخيل حتى تصير لغتنا مثل اللغة التركيّة العثمانيّة التي أصبحت ، لكثرة ما أدخلوه فيها من الألفاظ العربيّة والفارسيّة والإفرنجيّة ، لا مثيل لها في العالم إلاّ اللغة الهندستانيّة (الأورديّة) التي يكتب بها الهنود جرائدهم وكتبهم . أمّا اللغة العثمانيّة ، فإذا عدّت ألفاظها باعتبار اللغات المؤلّفة هي منها ، كان نحو ٧٠ في المائة من الألفاظ العربيّة ، و ١٥ في المائة من الفارسيّة ، و ٥ في المائة من اللغات الإفرنجيّة ، وعشرة في المائة فقط من الألفاظ التركيّة الأصليّة ؛ ويقال نحو ذلك في اللغة الأورديّة ، وفي اللغة المالطيّة .

أمّا اللغة العربيّة ، فلا بدّ من المحافظة على سلامتها ، والاهتمام باستبقائها على بلاغتها وفصاحتها ، وخاصّة بعد أن أخذت تنهض إلى أرقى ما بلغت إليه في إبّان شبابها . فلا يُستحسَن الاستكثار فيها من

الدخيل والمولّد ، وإنّما يؤخذ منها بقدر الحاجة ، على أن نعدّ ذلك الاقتباس نموّاً وارتقاء ، لا فساداً وانحطاطاً .

على أنّا نعدّ ما كتبناه في هذا الموضوع خواطر أبديناها ، وفتحنا بها باب البحث . وأمّا استيفاء الكلام في تاريخ اللغة وألفاظها وتراكيبها فلا يسعه إلاّ المجلّداتُ الضخمة . فنتقدّم إلى أئمّة اللغة ، وكتّابها ، وعلمائها ، أن يزيدونا من هذا الموضوع ، خدمة لهذه النهضة .

(من كتاب « اللغة العربيّة كائن حيّ »)

آراءٌ وشهادات

● « لا تعطوا الرجل الكبير بل خذوا منه .

لقد مات زيدان ، ومات زيدان عظيم كحياته .

لقد تحرّر ذلك الوجدان النبيل من متاعب العمل ومشاقّه . وسار ملتفّاً برداء مجده إلى حيث يتسامى العمل عن المشاقّ والمتاعب . قد ذهب زيدان إلى حيث لا تراه العين ، ولا تسمعه الأذن . ولكن ، إذا كان زيدان قد انتقل إلى إحدى السيّارات السابحة في بحر اللانهاية ، فهو الآن مشغول بنفع سكّانها ، منهمك بجمع معارفها ، مأخوذ بجمال تاريخها ، منصبّ على درس لغاتها ».

(جبران خليل جبران)

● « يُقدِّر صنيعَ زيدان مَن رقب عيشته الجافية ، عيشة التفكير الدائم ، والاستقراء المستمرّ ، عيشة الزاهد إلاّ في تصفُّح الأسفار ، واستطلاع طلع القديم من الأخبار ، لا يكلّ ولا يملّ ، مستعيناً بالمخطوط من سهل وممتنع ، أو راجعاً إلى مناجم الأعاجم في استخراج بعض الكنوز الدفينة التي جمعوها وصانوها ، من بقايا العرب » .

(خليل مطران)

● « فقدت لغة العرب بفقد زيدان عاملاً من أكابر عمّالها ، ومؤرّخاً من أكبر مؤرّخيها ، وأديباً روائيّاً من أشهر روائيّيها . ولقد كانت الخسارة به على هذه اللغة وآدابها فادحة ، ولا سيّما وأنّ الطريقة التي خدمها بها ليست من الطرق المبتذلة التي يجري عليها أكثر الكتّاب والمؤرّخين » .

(شبلي الشميّل)

● « ... وحسب زيدان أنّه ، على مثل ما ينقطع الحبيس إلى العبادة ، اندغم في الجهد الصابر ، وراح يقلّب صفحات التاريخ العربيّ ، مفكّكاً رموزه ، مستخرجاً كنوزه ، ساعياً إلى الغايات الثقافيّة الآخذة بلباب الحضارة والمعرفة ، ممّا يخرج أدبنا العربيّ من كهوف الماضي ويعالجه من داء ضيق النّفس » .

(ميشال سليمان)

المصادر والمراجع

من ميّز النهضة الحديثة أنّ أكبرَ بُناتها لبنانيّون . ويكفي ذكر « شبلي الشميّل » ، و« نجيب الحدّاد » ، و« إبراهيم اليازجي » ، و« أحمد فارس الشدياق » ، و« يعقوب صرّوف » ، و« طانيوس عبده » ، و« جرجي زيدان » ، وغيرهم ، لنرى أيّ عمارة فكريّة قد نهضت في شرقنا العربيّ ، راسخة الدعائم بعيدة المداميك في البقاء . غير أنّ أغلب هؤلاء البُناة لم يقيّض لهم حتى اليوم وجود من يعنى بهم ، ويدرس آثارهم ، ويقوم على طبع مؤلّفاتهم ، إن من الأفراد أو الحكومات .

إنّ أفضل المراجع عن « زيدان » هي مؤلّفاته . ومع أنّنا ، ولا شكّ ، واقعون على فصول في كتب دراسيّة ، أو أدبيّة تاريخيّة ، أو دراسات لبعض مؤلّفات « زيدان » في بعض المجلّات الأدبيّة ، غير أنّ ذلك لم يعطني الاعتبار لها كموفّية لحقّ الرجل ، أو كمتعمّقة في آثاره .

مؤلّفات « زيدان ».

أوّلاً – في التاريخ .

١ – تاريخ مصر الحديث ، جزءان .
٢ – تاريخ التمدّن الإسلاميّ ، خمسة أجزاء .
٣ – تاريخ العرب قبل الإسلام .
٤ – تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر ، جزءان .
٥ – تاريخ آداب اللغة العربيّة ، أربعة أجزاء .
٦ – تاريخ الماسونيّة العامّ .
٧ – تاريخ اللغة العربيّة .
٨ – أنساب العرب القدماء .
٩ – علم الفراسة الحديث .
١٠ – طبقات الأمم .
١١ – عجائب الخلق .

ثانياً – في اللغة .

١ – أللغة العربيّة كائن حيّ
٢ – ألفلسفة اللغويّة .

ثالثاً – في الرواية .

١ – فتاة غسّان ، جزءان .
٢ – أرمانوسة المصريّة .
٣ – عذراء قريش .
٤ – ١٧ رمضان .
٥ – غادة كربلاء .
٦ – ألحجّاج بن يوسف .
٧ – فتح الأندلس .
٨ – شارل وعبد الرحمن .
٩ – أبو مسلم الخراساني .
١٠ – ألعبّاسة أخت الرشيد .
١١ – ألأمين والمأمون .
١٢ – عروس فرغانة .
١٣ – أحمد بن طولون .
١٤ – عبد الرحمن الناصر .
١٥ – فتاة القيروان .
١٦ – صلاح الدين ومكايد الحشّاشين .
١٧ – شجرة الدرّ .
١٨ – ألانقلاب العثمانيّ .
١٩ – ألمملوك الشارد .
٢٠ – أسير المتمهدي .
٢١ – إستبداد المماليك .

٢٢ – جهاد المحبّين .

رابعاً – **الهلال** .

إثنتان وعشرون سنة في اثنين وعشرين مجلّداً .

خامساً – **مذكرات « جرجي زيدان »**.

نشر الدكتور «صلاح الدين المنجّد».